
قافلة الزيت
صفر ١٣٩٢ - مارس/ابريل ١٩٧٢



صورة لإحدى القلاع الأثرية الشهيرة في
منطقة الدرعية وقد التقطت قبيل المغيب .

راجع مقال "الدرعية، قلعة الأمجاد"   تصوير : علي عبدالله خليفة

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الثاني المجلد العشرون

تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الأمريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة - توزع مجاناً

العنوان : صندوق البريد رقم ١٣٨٩ - الظهران - المملكة العربية السعودية

محتويات العدد

آداب

علوم

استطلاعات

المدير العام فيصل محمد البسام المدير المسؤول : علي حسن قناديلي
رئيس التحرير : منصور مدني المحرر المساعد : عوني ابو كشك

التعليق على صورة الغلاف

منظر ليلي لبعض مرافق معمل التكرير في رأس تنورة حيث يجري تكرير المنتجات البترولية وتصنيعها
راجع مقال «أثر فعالية البنزين على المحرك»
تصوير : علي محمد خليفة

AL-MUTAWA PRESS CO., DAMMAM, SAUDI ARABIA

لماذا نؤثر أدب الحزن والمأساة على أدب التسلية والملهاة؟

يرى بعض النقاد أن الكتب التي ترضينا وتمتعنا ونستريح اليها هي الكتب التي نوافق مؤلفها على وجهة نظره ، ونذهب في الحياة مذهبه ، ونقف من مشكلاتها موقفه ، ولكني لا أظن هذا الرأي صحيحا من كل نواحيه ، فقد يروقنا كتاب من الكتب ، ويؤثر في نفوسنا ، ونحن مع ذلك لا نوافق مؤلفه على وجهة نظره ، وأضرب مثلا لذلك رباعيات عمر الخيام ، فهي على حسب ظاهر معناها تعبر عن شعور رجل يائس من الحياة ، فهو لا يؤمل فيها خيرا ، ولا يكلف نفسه الجهاد من أجل الحق أو الخير أو الفضيلة ، وكل ما يريده هو أن يجلس في ظل شجرة فينانة والى جانبه ديوان شعر وزق خمر ورغيف من الخبز ومحبوبته الحسناء ، ولو أنه عبر عن هذا الشعور في النثر لأعرض الناس عن أدبه ، وأهملوا أمره ، وعابوا عليه هذا الامعان في الحسية ، ولكنه قد عبر عن هذا الشعور في رباعيات بديعة النظم ، تصف الحالة النفسية المستولية عليه أبلغ وصف ، وتكشف عن الأسى الدفين الذي جعل اليأس يغلبه على أمره ، ويلون الحياة في نظره باللون القاتم ، ويثني عزيمته عن الجهاد الذي لا يدفع شرا ، ولا يجدي فتيلا ، ويبعثه على أن يقف من الحياة موقف المتأمل المشاهد ، لا موقف المكافح المجاهد .

ومن هذا القبيل لزوميات أبي العلاء المعري ، فان الاستمتاع بقراءتها شيء ، وموافقة أبي العلاء على مواقفه الفكرية فيها شيء آخر ، ولزوميات أبي العلاء حافلة بالسخرية من الناس وآرائهم ومعتقداتهم ، والاستخفاف بالآمال البشرية ، واليأس من مطالب الحياة الانسانية . ولا شك أننا نخالف أبا العلاء في وجهة نظره ، والكثير من أفكاره ، ولكن تروقنا مع ذلك النغمة الحزينة اليائسة التي تسري في جوانب شعره ، وتعصف في نواحي أدبه ، وتكشف لنا مـا يتعرض له الناس من عثرات الحظ ، وصدمات القـدر ، وأكاذيب المجتمـع ، وأضاليل الأماني .

ولا نزاع في أن من أحب الكتب الى نفوسنا هي الكتب التي نوافق صاحبها على وجهة نظره ، ونعجب بما يعجب به ، وننفر مما ينفر منه ، ولكن الكاتب الذي يثير في نفوسنا العطف لأنه كشف عن آلام البشر نجد متعة في قراءة كتبه ، وان خالفناه في نظرته العامة للدنيا ، وقد نستلذ قراءة الروايات الفكهة المضحكة أو القصص التي تصف لنا مطاردات اللصوص والمجرمين ، وحوادث القتل والاغتيال ، ولكن أمثال هذه الكتب قل أن تصبح ضمن كتب الأدب الباقية على الدهر ، وبعض الروايات الحديثة تكثر من وصف الحقائق النفسية ، حتى تكاد تكون مراجع في علم النفس في جميع ما وصل اليه ، والرواية التي يقوم الاهتمام بها على حالة العلم اليوم ليس من المنظور أن نجد من يعنى بقراءتها في الغد ، وكل الآداب العظيمة ملأى بالملاحظات النفسية ، وفي نظم كبار الشعراء وآثار الكتاب الممتازين حقائق نفسية قد كشفت وعرفت قبل أن يظهر علم النفس الحديث ، والطبيعة الانسانية هي المادة التي يتناولها الكاتب والشاعر والعالم النفسي ، ولكن بعض الكتاب الروائيين في العصر الحاضر يتناولون الطبيعة البشرية بروح التحليل العلمي لا بروح الفن ، وهو طور من اطوار الأدب سيبلغ مداه ، وينتهي الى غايته ، ويعقبه طور آخر .

وأحب الكتب الى نفوسنا هي الكتب التي تثير فيها العطف العميق على اخواننا البشر ، وتشعرنا الخوف والرهبة ازاء لغز الحياة وأحداث القدر ، ولذا نجد أن كتب المآسي أحب الى نفوسنا من كتب الملهيات ، والمأساة أكثر تأثيرا في نفوسنا من الملهاة ، وكأننا لا نستمتع بالكتب الا اذا أثارت شجوننا ، ومست شغاف قلوبنا ، وكأننا يسعدنا أن نحزن ، والأدب الحزين هو الذي يثير نفوسنا ، ويفجر فيها ينابيع العطف والرحمة ، ولذا نجد شعر الغزل وشعر الرثاء أقوى أثرا في نفوسنا من شعر المدح أو شعر الهجاء ، وذلك لأن شعر الغزل يصف لنا الآلام التي يعانيها المحبوب ، وروعات الفراق ، والاخفاق في طلب السلو والنسيان ، وشعر الرثاء يصف لنا مرارة فقد الأعزاء ، وحيرة الانسان أمام لغز الموت وغلبة الفناء .

ولقد حاول كثير من الباحثين والنقاد الكشف عن أسباب ارتياحنا للأدب الحزين وبخاصة أدب المأساة ، وذكروا آراء قد لا تكون حاسمة في تعليل هذا الارتياح ، ولكنها على أي حال تلقي ضوءا على نواحي هذه المشكلة ، فالكاتب البريطاني « مونتاج — Montague »

بقلم الاستاذ علي أدهم

يقول في فصل له عن « مباهج المأساة » « في تحقيق أجري بمناسبة اطلاق أحد أفراد العصر الحديث الرصاص على نفسه في أحد الفنادق بلندن ظهر أن هذا المنتقص لقيمة الحياة قد ذهب في مساء اليوم السابق لوفاته الى المسرح لمشاهدة تمثيل احدى المسرحيات المأساوية ، وحينما ذكر اسم المسرحية ، قال المحقق « آه ، اني أعرفها ، انها رواية تمثيلية تبعث على الاكتئاب الشديد » . ويقول « مونتاج » انه تبين بعد ذلك أن هذا الانسان اليائس كان قد أنهك صحته ، وأضنى نفسه ، وفقد ماله ، وانه طلق من زوجته ، وأصبح بلا مأوى ولا هدف . ولذلك لا يمكن القطع بأن المسرحية وحدها كانت سبب وفاته .

ويتساءل « مونتاج» قائلا : « هل يمكن القول بأن المأساة مهلكة وقتّالة للرجل المتزن العقل ؟ وهل نلحق مسرحية « فيدر » و « ميديا » و « لير » بالعقاقير الضارة ؟ »

يرى «مونتاج» انه ليس هناك من يقر هذا الرأي ، وان الناس لن تمسك عن ارتياد المسارح ولتستمتع بمشاهدة تمثيل مآسي شكسبير وغيره من كبار كتاب المأساة ، ولكن لماذا تذهب الناس لترى ما أصاب الملك « لير » وتشاهد اخفاق « مارك أنطوني » ومصرع كليوباترا ؟

يعلل بعض الباحثين ذلك بأن المأساة تهز نفوسنا وتفزعنا ، أو انها تجعلنا نشعر بأن البشر لا حيلة لهم ولا قدرة أمام سطوة الأقدار ، وادبار الحظ ، ووقوع المكاره ، وانها ترينا كيف تهوي العظمة من عليائها ، وتنهار القوة ، وتصوح زهرة الجمال ، ويعتريها الذبول ، ويعصف الموت بكل أسباب الحياة . ولكن لماذا ترتاد الناس المسارح وتنفق من مالها لترى هذه المشاهد المحزنة التي تكشف ضعف الانسان ، وترينا تقلب الحظوظ ، وسخرية الأقدار ؟ واذا كنا نكره أن تطالعنا مناظر البؤس والشقاء في واقع الحياة ، فلماذا نسعى الى المسارح لنشاهد المآسي التي تثير الخاطر وتحرك كوامن النفس ؟

يرى «مونتاج» أن المأساة حقيقة تثير مشاعر الفزع والخوف ، وتجعلنا نحس الضياع والسقوط ، ولكن شعورنا بذلك في المسرح يختلف الاختلاف كله عن شعورنا أمام الكوارث التي نشاهدها في الحياة الواقعية ، ففي المسرح حينما نشاهد تمثيل المأساة تلم بنفوسنا هذه المشاعر ملطفة منقّاة وخالية من الخطر ، والمآسي بموجب هذه النظرية تصقل نفوسنا ، وتشد من عزمنا ، وتشحذ قدرتنا على النضال ، وتقوي استعدادنا لملاقاة الخطوب ، ودفع الكوارث ، فهي بمثابة اللقاح الذي يكسب الجسم مناعة ترد غائلة المرض ، وتقضي على جراثيم الداء ، وليست لها قسوة وقع أحداث الحياة الواقعية ، وانما هي تشبه الخدش اليسير الاحتمال .

ولكن هذا التغيير ليس كافيا ولا شافيا ، فنحن لا نقبل على اللقاح للاستمتاع ، وانما نتقبله لما يحدثه من أثر يأتي بعد انقضاء فترة من الزمن ، ونحن لا نذهب الى المسرح لنلتمس متعة يأتي بها المستقبل ، وانما نذهب الى المسرح واثقين من أننا سنحظى بسويعات تسمو فيها نفوسنا ، ويصقل وجداننا ، وقد يطوف بنفوسنا طائف من الحزن ، وتطفر الدموع من عيوننا ، ولكننا مع ذلك نشعر بتسامي عواطفنا ، وتحليق عقولنا ، وصفاء خواطرنا ، وكأننا قد نقلنا الى عالم آخر أصفى وأكثر اثارة للشجون والاهتمامات من عالمنا الرتيب المملول .

ويذكر « مونتاج » أن الفيلسوف الفرنسي «بيرجسون» كان يعلل الميل الى المأساة بأنها تنقلنا الى عالم من التفكير في أحوال العصور الخالية ، واننا تحت تأثير سحرها نحكم بأننا قد عدنا الى مرحلة باكرة كانت فيها الأهواء الطبيعية العارمة التي نشاهدها في المأساة تنطلق من عقالها بغير كابح قبل أن تطامن الحضارة من حدتها وطغيانها ، كما نرى في المأساة ، ولكن الاعتراض الذي يمكن أن يوجد الى هذا التعليل هو أننا لا نستطيع أن نجزم بأن الأهواء البشرية في العصر الحاضر أقل حدة من أهواء الانسان البدائي ، والحروب والثورات كثيرا ما ترينا أن انسان العصر الحجري لا يزال كامنا في أعماق الانسان المتحضر ينتظر اللحظة المناسبة للانطلاق من عقاله ، ولم تخل فترة من فترات التاريخ من جرائم تدل على أن الأهواء البشرية لا تزال محتفظة بقوتها تحت ستار الحضارة ، ووراء قضبان العرف والتقاليد .

ولكن لننظر الى الموضوع من زاوية أخرى ، فنحن نشعر بالعطف على من يفتح لنا مغاليق قلبه ، ويفضي الينا بدخائل نفسه ، ومؤلف المأساة قد استطاع التغلغل الى نفوس أبطال مأساته ، واستحضر في نفسه أهواءهم وميولهم ، وجعل نفسه وسيلة لنقل مشاعرهم الى وجداننا ، وقد استطاع تصوير مشاعر وأحاسيس يعجزنا تصويرها ، فهو أقوى منا احساسا ، وأبرع تصويرا ، وهو يقدم لنا ثمرات هذا الشعور الدافق ، والتصوير البارع ، وكأنه يفضي الينا بما خالج نفسه من أهواء ومشاعر ، وأرجح اننا بوعي أو بغير وعي نستطيب هذه الثقة التي تحرك في نفوسنا بواعث العطف والمشاركة الخيالية ، وكل اقتراب عاطفي أو عقلي يدخل على نفوسنا السرور ، ويزيد ثقتنا بأنفسنا .

ومما يؤثر عن الشاعر الروماني «هوراس» قوله : « استشعر الحزن والأسى اذا أردت أن تجعل مسرحيتك تفجر من عيني الدموع » وبطبيعة الحال ليس المطلوب في المأساة أن نحزن على ما يصيب البطل حزننا على أقرب الناس الينا أو أعز أصدقائنا ، وانما المطلوب أن نستحضر صورة واضحة قوية مؤثرة لما يصيب البطل ، ويقول الناقد « مونتاج » اننا لكي نزود مدينة من المدن بماء من أحد الينابيع المائية ، فان علينا أن نرفع المياه الى قمة عالية في برج أعلى من الأحواض جميعها التي تغمرها المياه ، وعقل كاتب المأساة يشبه هذا البرج ، والوقائع التي تنقلها الينا رواية مأساوية لا تصل الى نفوسنا وتؤثر فيها تأثيرها الا بعد أن تتسامى في نفس مؤلف المأساة ، فهو ببراعة فنه ، وقوة ادائه ، وبلاغة تعبيره ، ومهارة تصويره ، يرفعها الى المستوى الذي يجعلها تؤثر في نفوسنا ، وقد كانت قصة مأساة «هملت» معروفة قبل أن يتناولها شكسبير بعبقريته الفنية وأن يسمو بها ، ويوحي الى نفوسنا مشاركته في الشعور بهذا التسامي ، وأرجح أن هذه المشاركة في التسامي بالشعور من أقوى أسباب ميلنا الى أدب المأساة .

وقد عرف أرسطو المأساة(١) « بأنها تقليد لعمل جدي كامل بنفسه له شيء من الخطر والأهمية ، في كلام ممتع بدرجة تتفق مع أهمية كل جزء من المأساة ، في صيغة مسرحية لا في صورة قصصية » .

وقد(٢) اتهم افلاطون الشعر ، وبنوع خاص شعر المأساة ، بأن له تأثيرا سيئا يرجع الى مقدرته على اثارة المشاعر ، ومن هذه الناحية وجه افلاطون اتهامه للشعر ، وقد رد عليه أرسطو دون أن يذكر اسمه . وقد رأى افلاطون أن بطل المأساة يستثير مشاعرنا بندب سوء حظه ، والشكوى مما ألمّ به من الخطوب والكوارث ، في حين أننا في الحياة نعجب بحق بالرجل الذي يحتمل الخطوب صابرا محتسبا دون أن يشكو أو يتوجع ، وكان الأجدر بالبطل أن يكف عن الاسراف في الشكوى واظهار الألم ، ويصبر ويتجلد ، فكيف نعجب ببطل المأساة وهو يسلك المسلك الذي يزري به في واقع الحياة ؟ وفضلا عن ذلك فاننا اذا رضينا لأنفسنا الاسترسال مع الحزن ضعفت سيطرتنا على مشاعرنا ، وعجزنا عن تحمل الآلام ، ومواجهة الأحداث الخطيرة ، وبذلك يصبح تأثير المأساة سيئا ، لأنه ينال من عزيمتنا ، ويضعف قوة مقاومتنا ، ويحد من سيطرة العقل ، ويمكن العواطف من السيطرة علينا .

ويسلم أرسطو بأن المأساة تثير العواطف وتحرك الشجون ، وقد لا تخلو اثارة العواطف من الخطر ، ولكنه رأى أن المأساة لا تكتفي باثارة هذه العواطف لذاتها ، وانما تثيرها لتتطهر منها نفوسنا ، وتتخلص من تأثيرها ، وتأمن سطوتها ، ويرى الناقد « أبركرومبي — Abercrombie » أن أرسطو قد اتبع في رده على أفلاطون طريقة الطب اليوناني الذي كان يرى أن كل جسم يجوز استخراج ما به من مادة غريبة بأن يعطى مادة تشابهها بمقادير خاصة ، وان هذا يشبه طريقة التطعيم ضد الأمراض في الطب الحديث ، فالمأساة في رأي أرسطو فيها شفاء للنفس من الشعور بالخوف والرأفة ، والارتياح الذي نشعر به حينما نشاهد تمثيل المآسي مصدره التخلص من هاتين العاطفتين .

وقد تابع أرسطو في هذا الرأي الشاعر الانجليزي(٣) « ملتن » وذكر في مقدمته لمنظومته عن شمشون « ان المأساة هي أكثر أنواع الشعر نفعا » وأيد رأيه بكلام أرسطو ، ونرى من ذلك أن وظيفة المأساة في رأي أرسطو تشبه العلاج الطبي ، فشاعر المأساة ينقي نفوس الذين يشاهدون تمثيل مسرحيته ويردهم الى العاطفة السليمة ، ويريح نفوسهم .

ويبني « أبركرومبي » على « أرسطو » صحة هذا التفسير ، وعنده أن المأساة حقيقة تؤثر في النفس تأثيرا ممتعا ونافعا بأن تبعث فينا مشاعر قد تكون في الحياة العادية مقلقة ومزعجة ، وقد يصحبها الألم ، ويتبعها الخطر ، ولكن المشاعر التي يثيرها أمامنا تمثيل الشر سواء كان هذا الشر سببه الرذيلة أو كان سببه الدمار والخراب والبؤس والشقاء تستبعد المأساة منها آثارها السيئة وتجعلها مفيدة مجدية ، وهي بهذا المعنى تطهر — في رأي ابركرومبي — الشعور تطهيرا .

ويقول « ابركرومبي » (٤) ، تقوم المأساة بعرض مصائب الحياة ، ولكن بفضل وحدة موضوع المأساة تصبح حتى مصائب الحياة نفسها مثلا للعالم الذي نرغب فيه أشد الرغبة ، وهذا يفسر لنا اللذة التي نتذوقها في المأساة ، فان الأشياء التي تكون في الحياة باعثة على الحزن تكون في المأساة المسرحية باعثة على التنفيس ، ومع انها قد تظل مثيرة للألم ، ولكن هنالك شيء آخر يضاف الى ذلك ، وهذا الشيء هو الذي يجعل في آلام المأساة خيرا لأنفسنا ، وهكذا نجد حتى في وسط الشرور التي في المأساة ذلك العالم الذي نلتمسه ونرغب فيه ، وبهذا المعنى يمكن أن يقال أن المأساة تحدث تطهيرا في العواطف التي تثيرها ، وان لم يكن هذا هو التطهير الذي عناه أرسطو فانه على كل حال مطابق لما قاله أرسطو كما انه مطابق للحقائق .

وقد يبدو في اعجابنا بالمأساة تناقض يبعث على التفكير ، فمن طبيعة الانسان أن يتجنب الألم كما نتحاشى الوباء ، ولكن الواقع أن مشاهدتنا للمأساة لا تثير في نفوسنا الشعور بالألم ، وانما تحدث عكس ذلك ، وذلك لأن المأساة تصاحبها عقدة محكمة ، وشخصيات قد اتقن المؤلف تصويرها ، كما انها مكتوبة بأسلوب أدبي لامع ، ويقوم بتمثيلها ممثلون يجيدون التمثيل ، وبذلك تزخر نفوسنا بالعواطف التي تؤثرها تلك العواطف ، التي تخرجنا من الحياة العادية المألوفة الى حياة شائقة ، واذا كانت المأساة تدخل الحزن على نفوسنا فانها في الوقت نفسه تقدم لنا صورا من الحياة تسمو بنا ، وتقوي عزمنا ، وتزودنا بنظرات للحياة صائبة ، وتجربة نافعة ، وأحسب أن هذا مما جعل للمأساة مكانة مرموقة في الأدب القديم والأدب الحديث ■

(١) و (٢) و (٣) و (٤) « قواعد النقد الأدبي » تأليف لاسل ابركرومبي وترجمة الدكتور محمد عوض محمد .

في الطريق

للشاعر محمد هاشم رشيد



الطريقُ الطويلُ .. لفّعهُ الصمتُ ... وأغْفى على ظلالِ الغروب
وبقايا الضياءِ تحتضنُ الأفْقَ ... وتُلْقي وِشاحَهَا في الدروب
وسنَى الأرجوان في موكبِ الشمسِ ... يُوشّي صدرَ الفضاءِ الرحيب
وطيوفُ النخيلِ في لُجّهِ المسحور ... أحْنتْ على ضِفافِ المغيب

* * *

الطريقُ الطويلُ .. بينَ المروج الخُضْر ... يمتدّ .. ساكناً .. مُطْمئِنا
وعلى (شاطئيه) يضطجِعُ العُشْبُ ... قريراً .. وينثَنِي .. مَرِح حنّا
ويُطِلُ الذهولُ في أعيُنِ الزهر ... فترْنو .. الى الأشعة وسنى
والوجودُ الغريقُ في ثَبَجِ الأحْلام ... ينْسابُ في الظلالِ .. ويَفْنى

* * *

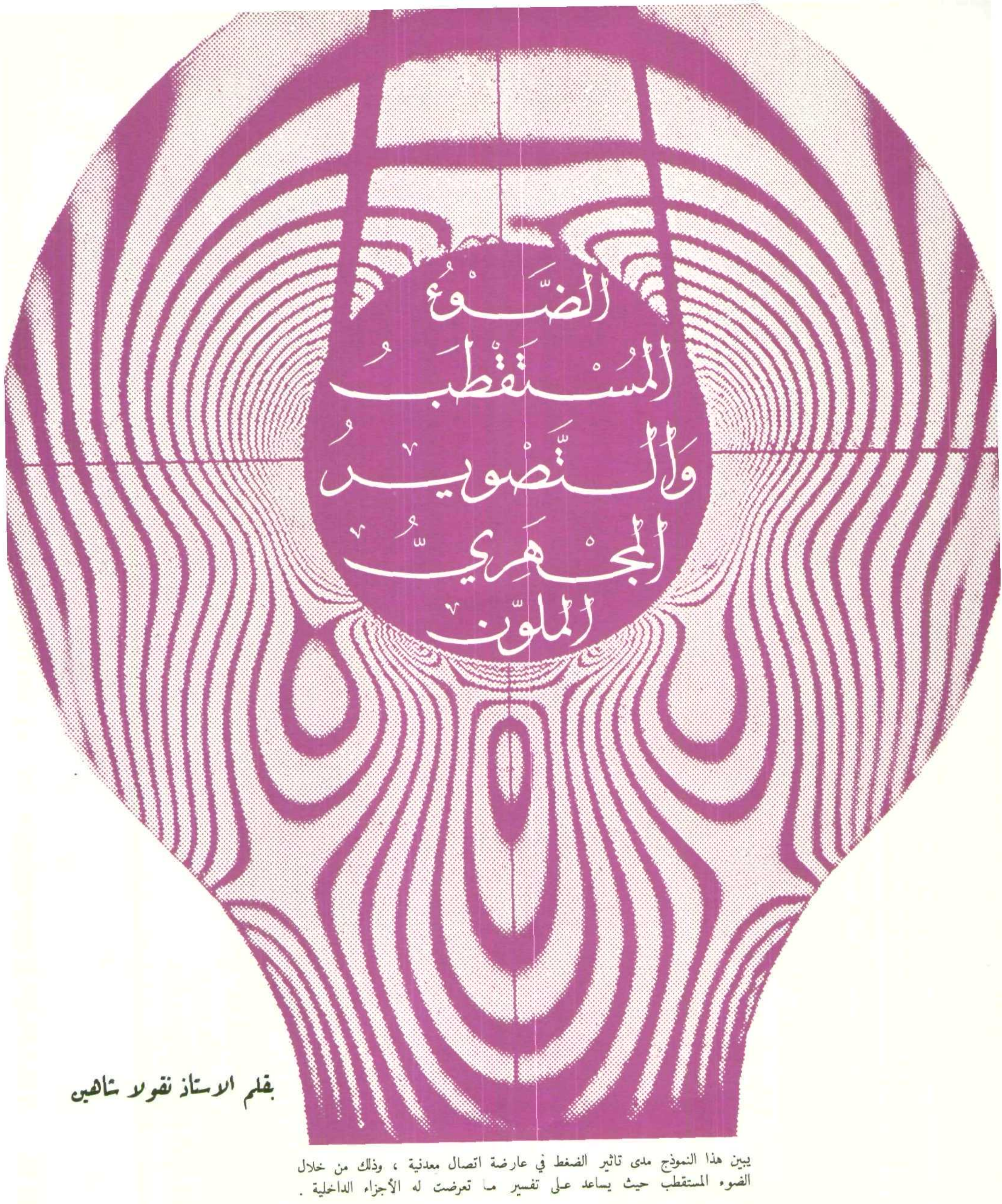
خطوةً .. خطوةً .. أسيرُ على الرملِ ... وقلبي هناكَ يسبقُ خطْوي
خطوةً .. خطوةً .. أسيرُ وللشمسِ ... على الأفقِ خطوةٌ .. ثم تَهْوي
واذا بِي أرى هنالِكَ طيْفاً ... سارَ فوقَ الرمالِ نشوانَ نحْوي
يتهادى .. مغَرّداً .. وخُطاهُ ... كخُطى الطّفلِ .. في دلالٍ ولَهْوِ

* * *

جلّلتها عباءةٌ .. جسّدتْها ... حُلُماً رائعاً .. يَفيضُ جمالا
عانقتْ صدْرَها الشموخ وعطْفَيْها ... وأبدَتْ .. جَبينَها .. يتَلالا
وتهاوَتْ مُنسابةً تلثمُ السّاقَ ... وتهْفُو .. تَضَرّعاً .. وابتهالا
وطوتْ خَصْرَها عن الأعينِ الظّمْأى ... وضَمّتْ جمالها .. المُخْتالا

* * *

وأطلّتْ .. ومِنْ محاجِرِها النّشْوى ... أطلّ الضّحى .. ورفّ الأصيلُ
وبدَا الفجْرُ في غلائلِهِ البيضِ ... تُغَنّي له الرّبى والسهولُ
والمراعِي الخضراءُ تبْتهجُ الأحلامُ ... فيها .. ويصْدَحُ « الأرغولُ »
والليالي القمراءُ تختلجُ الأنْغام ... فيهَا .. ويسْتفيقُ الخَميلُ !!



الضوء المستقطب والتصوير المجهري الملون

بقلم الاستاذ نقولا شاهين

يبين هذا النموذج مدى تاثير الضغط في عارضة اتصال معدنية ، وذلك من خلال الضوء المستقطب حيث يساعد على تفسير ما تعرضت له الأجزاء الداخلية .

طبيعة الضوء

احتلت دراسة طبيعة الضوء فيما مضى مرتبة رئيسية بين الدراسات العلمية الأخرى ، وكانت الآراء في هذا المجال متعددة ومتناقضة نظرا للغموض والملابسات التي رافقت هذه الظاهرة الطبيعية . ولقد توصل الأقدمون الى معرفة الكثير عن الشمس والقمر والكواكب السيارة والنجوم ، بعد اختلاف في الرأي تم التغلب عليها بفضل الأبحاث والجهود العلمية المتضافرة ، كما تم التوصل الى قوانين وحقائق مثبتة لا جدل في صحتها .

لكن تفسير طبيعة ظاهرة الضوء بقيت قرونا قيد البحث والدراسة ، وبالرغم من الأمور العديدة التي طبقت في عالم الضوء ، فان هناك أمورا علمية لا تزال موضع شك وتحتاج الى أبحاث دقيقة ، لأن الضوء كما نعلم ليس ذلك الجسم الذي يهبط من عل الى الأرض بموجب قوانين الجاذبية ، فنراه في مختلف حالاته ونعين مساره ونحدده بمعادلات رياضية ، يسلم بها كل من يعالج هذه الأمور . والذي لا ريب فيه هو أن العالم الفلكي « الحسن أبو علي بن الحسن ابن الهيثم » كان أول من وضع كتابا يصلح أن يكون أساسا لعلم البصريات ، وقد بقيت تعاليمه مرجعا لمعاهد أوروبا خلال القرون الوسطى وفي ابان عصر النهضة .

ولد هذا العالم الفلكي الكبير عام ٣٥٤ هجري (٩٦٥ ميلادي) واتبع في أبحاثه الأسلوب العلمي الحديث وهو يقوم على مشاهدة الظاهرة الطبيعية ، ثم جمع تلك الظواهر وترتيبها وتبويبها للوصول الى علاقة تربط بعضها ببعض . وينسب اليه شرح انكسار الضوء أو انعطافه عندما ينفذ النور من وسط الى آخر ، بانيا ذلك على أن سرعة الضوء في الهواء هي أعظم منها في الماء أو الزجاج ، وهذا يجعلك تشاهد قعر بركة فيها ماء أعلى من وضعه الحقيقي .

على أن « ابن الهيثم » لم يهمل معالجة طبيعة الضوء ، بل وصفه بأنه ذري التركيب ، وأن الجسيمات التي يتألف منها الضوء تسقط على سطح ما فترتد كما ترتد كريات من المادة لدى اصطدامها بجسم أو سطح ما بموجب قانون انعكاس الأشعة . وقد اعتمد علماء الفلك نظرية هذا العالم الفيزيائي العربي في تفسير ظاهرة الضوء أساسا في تطوير علم البصريات الحديث ، وقد أثبت صحتها العالم « اسحق نيوتن » بعد ستة



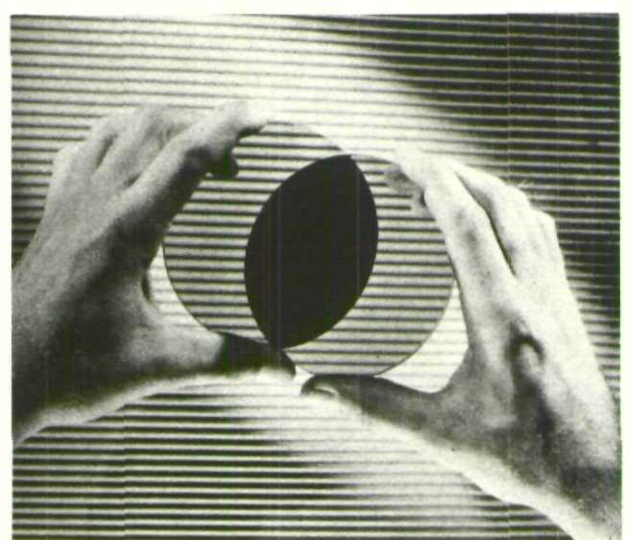
جهاز حديث يعتمد على ظاهرة استقطاب الضوء للكشف عن كية السكر في محلول ما .

قرون من ظهورها . غير ان هذا الأخير ، عند معالجته قضية انكسار أشعة الضوء أثناء مرورها من الهواء الى الماء ، خرج بنتيجة مفادها أن سرعة الضوء في الماء هي أعظم منها في الهواء . وبقي هذا الرأي مقبولا في الأوساط العلمية ، الى أن جاء العالم الفرنسي « فوكو » عام ١٨٥٠م فأثبت عن طريق تجربة فريدة ، أن سرعة الضوء في الماء هي أقل منها في الهواء ، فنقض بذلك ما كان قد قال به « نيوتن » . وكان « هوجنس » قد نادى بطبيعة الضوء التموجية ، وبموجبها تكون سرعة الضوء في الماء أقل منها في الهواء فتبنتها الأوساط العلمية لانسجامها مع ما كان معروفا من خواص أشعة الضوء .

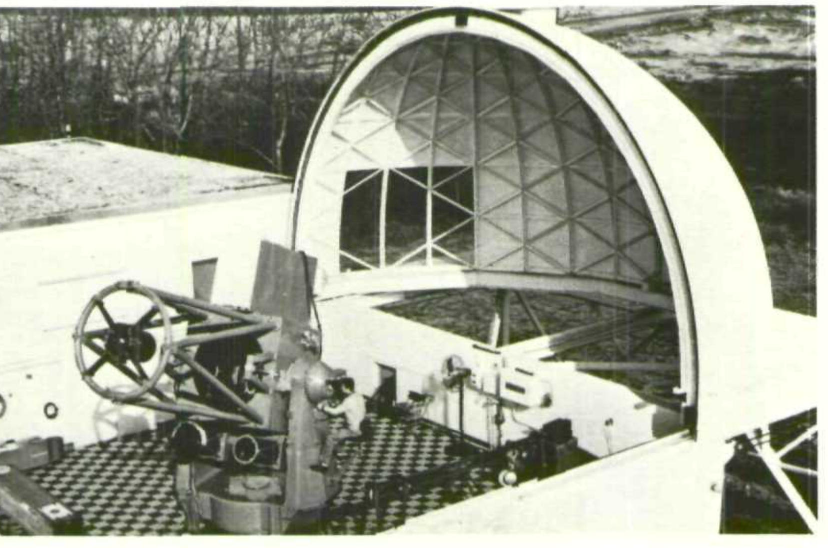
العودة الى النظرية الذرية للضوء

اكتشف بعض علماء الفيزياء في عام ١٨٨٧م ظاهرة جديدة في عالم الضوء ، وهي انه عندما يقع الضوء على لوح معدني ، تنطلق بعض الكهارب من ذلك اللوح . وعرفت هذه الظاهرة بالظاهرة الكهرنورية ، تعد اليوم أساسا لتطبيقات ومجالات علمية عديدة جدا تشمل الصور المتحركة وأجهزة التلفاز وأجهزة الانذار وغيرها من عشرات الأجهزة العلمية الدقيقة التي أثبتت جدواها في مجال البحث والتدقيق والاستقصاء . ومن ناحية أخرى ، فقد حاول العلماء تفسير هذه الظاهرة العلمية عن طريق الطاقة التي تحملها كل موجة ضوئية ، فاصطدموا باعتبارات جعلتهم يعدلون عن ذلك . والمعروف في علم البصريات أن طول موجة الضوء المنظور يتراوح بين ٤٠٠٠ و ٧٠٠٠ جزء من مائة مليون جزء من السنتيمتر ، مما ساعد على معرفة المساحة التي تقع عليها الموجة الضوئية لتسبب انطلاق الكهارب من اللوح المعدني بطاقة معروفة . وبعد أن توصل العلماء الى قياس كتلة الكهرب وطاقته ، وجدوا أنه ليس بالامكان التوفيق بين طاقة الكهرب والطول الموجي للضوء ، فجاء ذلك ايذانا بظهور نظرية الكم التي تقول بأن الضوء عبارة عن وحدات مستقلة من الطاقة . ثم جاءت نظرية النسبية تدعم النظرية السالفة .

وهناك ظاهرة تدل على أن نور الشمس يولد ضغطاً ، وهذا ما يبعث على الاعتقاد بأن الضوء مادي بطبيعته . فالمذنبات تدور حول الشمس بأفلاك منحنية ، وعندما تكون بعيدة عن الشمس تصبح أذنابها قصيرة نوعا . وعند اقترابها من الشمس تطول الأذناب الى ما يعادل مليونا ونصف المليون كيلومتر في بعض الحالات ، وتتجه هذه



عندما يتقاطع لوحان مستقطبان ، ينحجب النور كليا أو جزئيا ، وتصنع هذه الألواح المستقطبة عادة من مادة شفافة يتخللها عدد كبير من بلورات اصطناعية بشكل يجعل محاورها متوازية .



يمثل هذا المشهد مرقب المقياس الطيفي التابع لمختبر لنكولن ويبلغ قطره ٤٨ بوصة . وهو جهاز دقيق وحساس يستخدم في قياس طيف الأشعة دون الحمراء وفوق البنفسجية . ومن ميزاته أنه يسهم في حل المشاكل المتعلقة بالمركبات الفضائية وتعقب آثارها .

الأذناب دائما بعيدا عن الشمس . وعندما يقترب مذنب من الشمس ، يحدث أمر غريب اذ أن الذنب يسبق الرأس في هذه الحالة . والسبب في ذلك هو أن شيئا ما يأتي من الشمس فيدفع غازات المذنب ، وقد يكون ذلك الشيء ، في بعض الحالات ، ضغط متولد من الضوء ، أو جسيمات عظيمة السرعة في حالات أخرى . أما تقدم الذنب على الرأس فهو دليل على أن الضوء يتمتع بالطاقة ، أي انه يسير بسرعة ويدفع الأجسام بقوة عندما تعترض طريقه .

ويعتقد بعض العلماء بأن الضوء يحدث ضغطا على سطح الأرض ، لكن مثل هذا الاعتقاد يبدو ضعيفا . وعلى الرغم من أنه لا يمكن قياس ضغط كهذا الا بأجهزة حساسة للغاية ، فان بعض العلماء قد تمكنوا من قياس مقدار الضغط الذي يحدثه الضوء فوجدوه مساويا للضغط المتولد عن طبقة من الزيت يبلغ سمكها جزيئا واحدا . كما تبينوا أن ضغط الضوء يزداد بازدياد قوة الانارة ، حيث يصبح عاليا جدا على سطح الشمس وكذلك على سطح النجوم .

آخر الآراء حول طبيعة الضوء

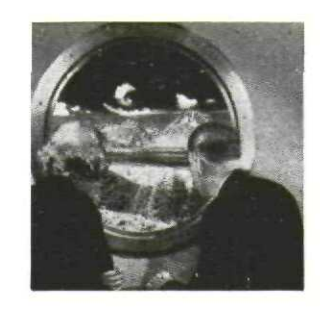
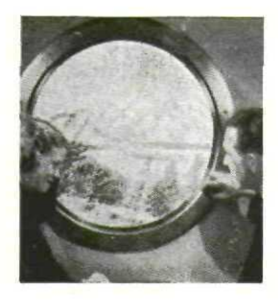
بالرغم من اختلاف النظريات المتعددة ، فقد جرت تطبيقات عديدة في عالم الضوء ، كان لها أثرها الفعال في مختلف حقول العلم . ولا يزال علم الفلك ، وغيره من العلوم ، يعتمد على تمثيل أشعة الضوء بخطوط مستقيمة تقع على العدسات والمرايا ، فتنكسر هذه الخطوط الضوئية ، أو تنعكس ، وعلى ضوء هذه الانعكاسات والانكسارات تبنى معادلات تكون نتائجها على جانب كبير من الدقة .

ولقد قبل العلماء بنظرية طبيعة الضوء الموجية لأنها كانت أفضل من النظرية الذرية للضوء وأبسط منها في تفسير ما كان يعالجه العلماء من أمور تتعلق بظاهرة الضوء . وهنا لا بد لنا من الوقوف قليلا عند ظاهرة استقطاب الضوء التي كانت معروفة في أيام العالم « اسحق نيوتن » ، والتي أخفقت النظرية الموجية للضوء في تفسيرها .

وتحدث ظاهرة الاستقطاب هذه عادة عندما يخترق الضوء احدى البلورات أمثال بلورات « التورمالين » وبلورات « كربونات الكلس » المعروفة ببلورات « ايسلان سبار » . فاذا وضعت بلورة من هذه البلورات في طريق حزمة ضوئية ثم وضعت بلورة أخرى وراءها فان الضوء ، يستطيع اختراق البلورة الثانية اذا كانت موازية في وضعها للبلورة الأولى . أما اذا أدرنا البلورة الثانية بمقدار تسعين درجة فان الضوء لا يخترقها . وهذا خلاف لما نشاهده عادة عندما نضع لوحا زجاجيا في طريق حزمة من الضوء ثم نضع وراءه لوحا آخر حيث تخترق الحزمة الضوئية اللوح الآخر كيفما أدرناه بالنسبة للوح الأول . غير أن العلماء لم يتمكنوا من تفسير هذه الظاهرة عن طريق نظرية طبيعة الضوء الذرية ، فلجأوا الى النظرية الموجية ، وقالوا ان أشعة الضوء تحدث ذبذبات في جميع الاتجاهات . وعندما تصل الأمواج الضوئية الى بلورة ما تنفذ من خلالها ، وتمتص البلورة ما تبقى من الأمواج الضوئية . وهذا يعني أن أمواج الضوء عرضانية وليست طولانية .

لكن النظرية الموجية للضوء كانت تتطلب وجود سائل يملأ الفضاء ، ذلك هو الأثير ، غير ان هذا الأمر بدا غريبا وباعثا على السخرية في نظر بعض العلماء ، أمثال « لا بلاس » و « أرغو » ، لأن خواص الأثير هذا كانت تختلف اختلافا كليا عما هو معروف بالنسبة لظاهرة استقطاب الضوء ، فبذلوا جهودا كبيرة لتفسير ظاهرة الاستقطاب من خلال مبادىء النظرية الذرية للضوء . لكن عالما فيزيائيا فرنسيا يدعى « أوغسطين فرنال » افترض وجود أثير صلب مرن مما ساعده على الوصول الى نتائج وتخمينات أكسبته شهرة واسعة بين علماء الفيزياء . وهكذا عادت النظرية الموجية الى الوجود مبنية على افتراض وجود الأثير كجسم صلب مرن ينفذ منه الضوء . لكنه بالرغم من المتناقضات العديدة التي رافقت هذا الافتراض ، كحركة الكواكب السيارة التي لم يطرأ عليها تغير أثناء عمليات الرصد الفلكي خلال مدة طويلة من الزمن ، فان العلماء قد رحبوا به وأيدوه .

هذا ، ويعود الفضل في حسم الآراء المتناقضة التي أثيرت حول طبيعة الضوء ، الى العالم « مكسويل » عندما أعلن أن الضوء يتألف من أمواج كهرطيسية كالأمواج اللاسلكية ، وبذلك أمكن تفسير ظاهرة استقطاب الضوء دون اللجوء

أخذت ألواح « البولارويد » تحل مكان الزجاج في النوافذ ، وهي تتميز عن الزجاج بأنها تحجب الضوء جزئيا أو كليا عن الشخص الموجود داخل البيت عندما يدور اللوح الداخلي .

الى افتراض وجود وسط غريب كالأثير . أما مصدر الأمواج الكهرطيسية فهو تذبذب كهربائي يرافقه تذبذب مغنطيسي في جميع الاتجاهات الفضائية ، وتتعرض تلك الأمواج للاستقطاب لأسباب عديدة.

الضوء المستقطب في عالم الصناعة

هنالك ظاهرة بسيطة بحد ذاتها وهي انكسار أشعة الضوء المزدوج . فعندما تقع هذه الأشعة الضوئية على بعض البلورات ، يتولد عن ذلك نوعان من الاشعاع ، أحدهما طبيعي وذو صفات وخواص مماثلة لخواص حزمة الضوء عندما تقع على قطعة من الزجاج ، والآخر غير طبيعي وله صفاته الخاصة . غير أن تطبيق هذه الظاهرة لم يدخل في نطاق الحياة العامة ، نظرا لصعوبة الحصول على أجهزة رخيصة الثمن ، الا أن المساعي العلمية الحثيثة حققت أمورا جوهرية في هذا المضمار ، وذلك عن طريق صنع ألواح شفافة من مادة الجيلاتين تتخللها بلورات مستقطبة اصطناعية ، بحيث تكون محاورها وأطوالها متوازية . فعندما تخترق أشعة الضوء اللوح الأول ، يمتص هذا اللوح القسم الطبيعي من الأشعة ، وينفذ منه القسم غير الطبيعي . فاذا وضع لوح ثان مركب من المادة نفسها وراء اللوح الأول مباشرة وفي الوضع نفسه ، فان الأشعة غير العادية تنفذ أيضا من اللوح الثاني تماما كما هي الحال في الأجسام الشفافة . أما في حال تحريك اللوح الثاني بشكل دائري ، فان الضوء يحتجب تدريجيا الى أن يختفي ، وذلك عندما يصبح وضع اللوح الثاني متعامدا تماما مع اللوح الأول .

ومن التطبيقات البسيطة التي حققت في هذا المجال ، استعمال النوافذ لتحل محل الزجاج على أن يكون في كل نافذة منها لوحان من المادة الشفافة المستقطبة ، أحدهما ثابت والثاني قابل للدوران . فهذه النوافذ تحجب الشخص الموجود داخل البيت جزئيا أو كليا ، وذلك بتحريك اللوح الداخلي ضمن زاوية معينة . وهناك نوع من النظارات يعتبر مرشحا للضوء ، من خواصه انه يغير أو يستقطب اتجاهات الضوء الموجية من المصابيح فيخفف من وهجها ، مما يجعل قيادة السيارات ليلا أكثر سلامة . كما ان آلات التصوير الحديثة تعتمد على طبق مصنوع من مادة مستقطبة ، كمرشح للضوء المنتشر في الفضاء وذلك بغية وضوح الصور وابراز معالمها بدقة .

وهناك مواد كالزجاج أو اللدائن الشفافة ، تصبح ذات انكسار مزدوج ، عندما تتعرض لضغط آلي أو تتمكن من تحويل الضوء المستقطب سطحيا الى ضوء مستقطب دائريا أو بيضاويا . وعندما توضع هذه المواد بين مستقطب ومحلل متقاطعين ، تظهر أشكال من أهداب التداخل ، فتكشف بدورها مدى تأثير الضغط في مادة معينة ، اذ يكون تأثير الضغط على أشده حيث تكون الأهداب قريبة من بعضها البعض . وهكذا أصبح بالامكان دراسة وتحليل تركيب هندسي معقد ، عن طريق تصوير نماذج شفافة تحت ضغط معين .

وليس بخاف الدور الذي يلعبه جهاز استقطاب الضوء في تعيين مقدار كمية السكر في محلول ما دون الاستعانة بوسائل أخرى كيميائية أو غيرها . ويشبه هذا الجهاز المجهر الى حد بعيد ، الا أن المجهر يعتمد على خاصة الضوء العادية ، حيث تقوم المرايا والعدسات بانعكاس الضوء أو انكساره . بينما يقوم جهاز الاستقطاب على صفة الانكسار المزدوج حيث تتحول أشعة الضوء الى عادية وغير عادية بواسطة موشور بلوري ، ثم يجري تحليلها عن طريق موشور آخر يدور على محور الموشورين .

التصوير المجهري الملون

ليس من شك في أن الدراسات المجهرية قد حققت انتصارات كبيرة في شتى المجالات العلمية . فبالنسبة الى الطلع والخلايا النباتية المتحجرة مثلا ، توجد عينات دقيقة للغاية بحيث يبلغ حجم بعضها حوالي جزء من (٥٠٠ ٠٠٠) من السنتيمتر ، وبالرغم من هذا ، فقد تمكن الخبراء من تصوير هذه العينات بواسطة مجهر قوي العدسة ، وذلك عن طريق الأمواج الضوئية . علاوة على هذا ، فقد طرأ تحسن ملحوظ على صناعة المجهر الألكتروني نفسه بحيث أصبح بالامكان مشاهدة التراكيب الذرية التي لا يتعدى حجمها جزءا من ٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ من السنتيمتر ، كما أصبح من الممكن تنشيط عمليات التنقيب ضمن حقول

علوم البيئة والتعدين والطب ، وخاصة في مكافحة داء السرطان ، ودراسة الخلايا الوراثية .

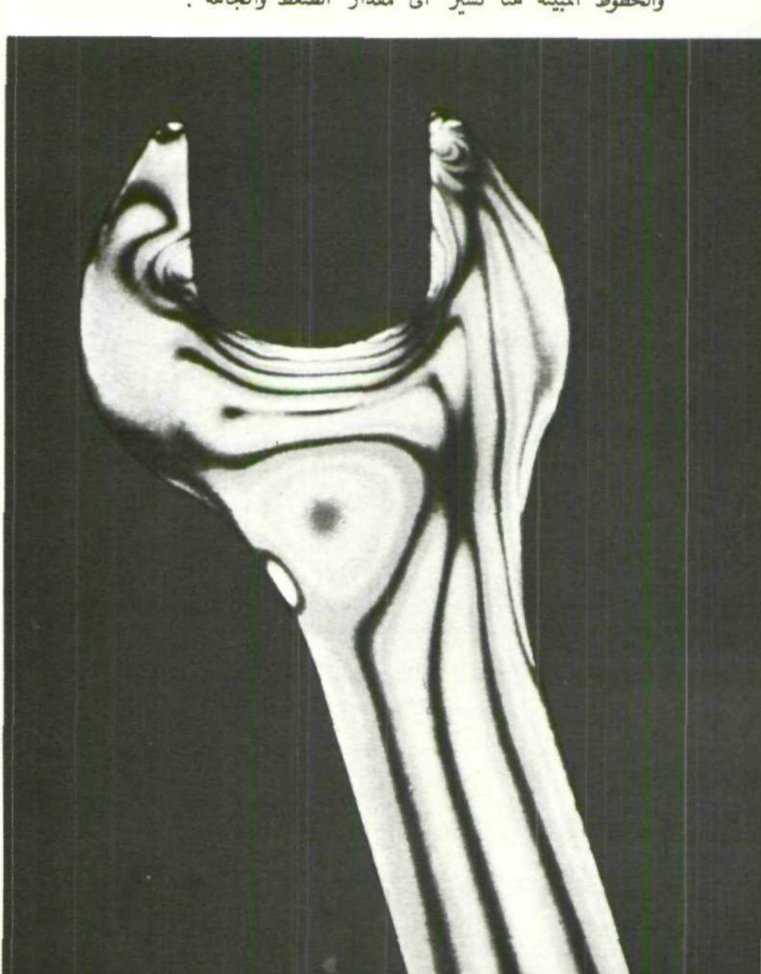
أما التصوير المجهري الملوّن ، فقد جاء ليسد ثغرة في عالم المجهريات ، وهو يقوم على ظاهرة الضوء المستقطب الذي ينكسر الى موجات مختلفة الطول ، عندما يصطدم بالتكوين الشفاف الناعم للأنسجة الحية أو غيرها من الأجسام ، مما يفسح المجال أمام العلماء لمراقبة الأجسام المجهرية ودراستها دراسة دقيقة ووافية .

هذا ، وقبل نحو مائة عام ، ظهر الى الوجود أول تصميم لمجهر بسيط ، يعتمد على استقطاب الضوء مكن الخبراء من دراسات أساسية تفصيلية للمعادن المهمة . ولدى مقارنتنا بين ذاك المجهر البسيط والمجهر الحديث الذي يعتمد أيضا على الضوء المستقطب ، فاننا نجد أن ثمة فرقا شاسعا بين الاثنين من حيث التطور والابداع في هذا المجال . ومن ناحية أخرى ، فان استخدام المجهر المستقطب لم يكن محصورا في حقل التعدين ودراسة الصخور ، بل تعدى ذلك الى حقول علم البيئة والطب والألياف واللدائن وطبقات الأرض فضلا عن أهميته في حقل التصميم الآلي الدقيق .

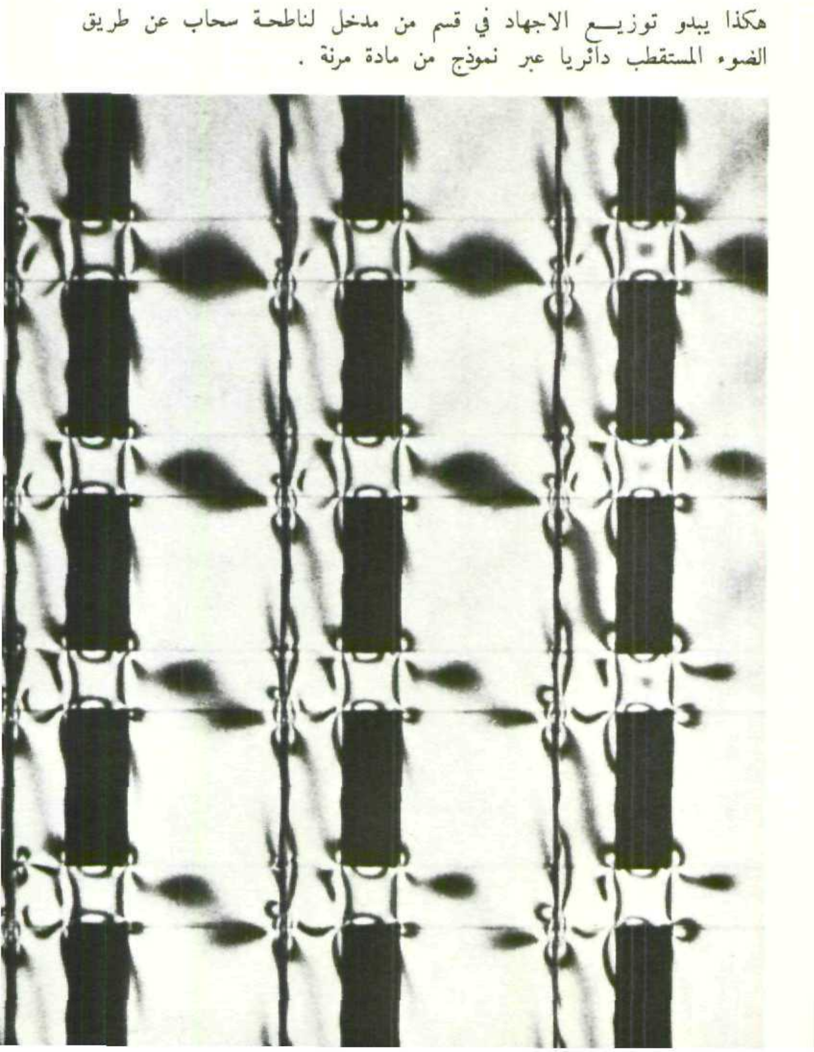
وقد جاء في تقرير لمؤسسة الرياضيات التطبيقية والميكانيكيات في المانيا ، عن أهمية التصوير المجهري ، ان هذا التصوير يمكن من خلاله تبيان حالة الاجهاد التي يتعرض لها البناء من جراء تأثير آلي أو حراري . ويتم ذلك بصنع نموذج للبناء المراد فحصه من مادة شفافة مناسبة تكون غالبا من اللدائن ، ثم وضع أثقال معينة على هذا النموذج ، كتلك التي يتعرض لها البناء الحقيقي . والمعروف أن النماذج ذات الطبيعة الواحدة في جميع الاتجاهات ، تصبح غير موحدة الطبيعة من الناحية الضوئية عندما تتعرض لضغط خارجي ، فيحدث فيها انكسار مزدوج كما هي الحال في بعض البلورات .

وتبدو ظاهرة الانكسار المزدوج جلية عندما يوضع النموذج بين مستقطبين للضوء . وفي حال استخدام الضوء العادي الأبيض ، تظهر صورة ملونة تساعد على استخلاص النتائج المتعلقة بتوزيع الاجهاد ومقداره ، وذلك من خلال خطوط ذات لون واحد .

لقد كان « رومان فيشنياك » الأخصائي المجهري في طليعة المصورين الفوتوغرافيين للكائنات المجهرية الحية . ومن مآثره العلمية ، ايجاد المنهج الفريد للتصوير المجهري الملوّن عن طريق الضوء المستقطب ، حيث تبدو أنسجة الأجسام الحية بألوان مختلفة ، مما يسمح للعلماء بمراقبة هذه الكائنات المجهرية الحية والوقوف على معلومات وتفاصيل أدق وأوفى مما يمكن الحصول عليه عن طريق المجهر العادي . وكل من يشاهد مثل هذه الصور التي التقطت عن طريق استقطاب الضوء ، حيث تبدو نتائج اختلاف القوى التي تفعل في الأجسام ، أو تفاصيل الأنسجة في الأجسام الحية بألوان زاهية متعددة لا يملك الا أن يسلم بعظمة الخالق وابداعه لهذا الكون الشاسع الواسع ، وسبحان من علم الانسان ما لم يعلم ■



صورة مجهرية ملونة التقطت لمفتاح حديدي تحت ضغط معين ، والخطوط المبينة هنا تشير الى مقدار الضغط واتجاهه .



هكذا يبدو توزيع الاجهاد في قسم من مدخل لناطحة سحاب عن طريق الضوء المستقطب دائريا عبر نموذج من مادة مرنة .

غُبار

للشاعر خليل الهنداوي

رَكضْنا ... بِرَى الركْضُ أقدامَنا   فليسَ على الدَّرْب الاّ الغُبار
نروحُ ونغدُو ، نكِدّ ونَشْقَى   ويدفعُنا السَّيْلُ عَبْرَ القِفارْ
ونَضْوِي ، وتَذْبُلُ آمَالُنا   كما يذْبُلُ الزّهرُ بعْد افتِرارْ
وتغْتمضُ العَيْنُ عن عَالَم   هوَ الحُلْمُ رفّ جَناحاً ، وطَارْ
فمِنْ مَلْعبٍ ملء رحْبِ السّماءِ   الى هُوّةٍ ما لَها مِنْ قَرَارْ

• • •

غدا ، سوفَ يكثرُ عنّا السّؤال   وبعد غدٍ ، لا سؤالٌ يُثَارْ
وقدْ تُشْرِقُ الشمسُ منْ بَعْدِنا   ويَسْطَعُ للمُدلِجينَ النّهارْ
كأن لم نَجِيءْ ساعةً للحياةِ   ولم نَقْرع الروضَ بعدَ اخْضِرارْ
نُشيدُ الديارَ ، ويا ليْتَها   بُعَيْدَ النّوَى ، تحتوينَا الدّيارْ

• • •

فيا عابراً بيديهِ الزّهور !   وحولَك أوراقُها في نِثَارْ
كأنّ دماءَكَ في ورْدِها   تضوعُ عبيراً ، وتزْهُو احمِرارْ
تمتّع صباحاً بِشَمِّ العَرارْ   فأنْتَ ، مساءً ، طعامُ العَرارْ
تمسّكْتَ بالعَيْشِ ، تبغي الخلود   تطولُ اللّيَالي ، وهُنّ القِصَارْ
تمُرّ الحياةُ مرورَ القِطَارْ   ورُكّابُهَا أبداً في انتِظَارْ

شاعر من الجاهلية

بقلم الدكتور هاشم ياغي

حين يقف المرء وقفات متأنية عند بعض آثار الجاهلية الشعرية تبهره مقدرة القوم على التغني بهمومهم في مستوى بشري رفيع . وفي أضواء هذه الوقفات أحب أن أتناول قصيدة من أجمل القصائد التي تسفر عن صاحبها وهمومه وعصره ، تلك هي قصيدة « الشنفرى الأزدي » اللامية المعروفة بـ « لامية العرب » .

وما أريد أن أتحدث عن هذه القصيدة من ناحيتها الخارجية ، وانما أريد أن أتحدث عنها من الناحية الداخلية .

وقبل أن أمضي في هذا الحديث ، أود أن أنبه الى الهم الكبير الذي حملته من هموم صاحبها الشنفرى . فقد ابتلي هذا الشاعر بآفة الصعلكة ، وحكم عليه أن تلفظه قبيلته وغيرها من القبائل ، وأن يصبح وسط التقاليد القبلية الجماعية وحيدا منفردا ، لا تحمل القبيلة شيئا من آثامه أو جرائره وجناياته .

طريـد جنايـات تياسرن لحمه عقيرتـه لأيهـا حمّ أول(١)

ولا يتاح له هو أن يشارك القبيلة في مغنم أو مغرم ، وانما هو معرض لفردية تضعف أمام كيد الجماعة وعقوباتها .

ولعل هذا الموقف الذي وقفته القبيلة من الشنفرى ، فصيرته به صعلوكا ، يقف في مهب الريح ولا مدافع عنه غير فرديته أن يكون أعمق المواقف أثرا في هموم الشاعر ، فقد استشعر بسببه عمق المأساة التي تردى فيها ، واستشعر كذلك المرارة الحادة التي سببها خذلان قومه له .

وحين وجد الشنفرى نفسه مترديا في هذه الهوة الاجتماعية حاول في كثير من الأحيان أن يغطي ما قد يبدو عليه من الضعف والهوان وأن يتظاهر بعكس ما كان يستشعر من هذا الضعف والهوان ، وان كان الفن الشعري الجميل يبدي مثل هذا التظاهر ، ولهذا أعلن منذ مطلع أبيات اللامية التي وصلت الينا انه هو الذي أراد أن ينأى عن قومه بعد أن تبين دخيلة نفوسهم :

أقيموا بني أميّ صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لأميـل

ولا يحسبن القارىء أن اعلانه من جانبه مفارقة قومه الى قوم سواهم سيؤدي بالشنفرى الى قبيلة أخرى ينتسب اليها بالولاء ، وانما قومه الذين اختارهم من دون أهله ليسوا من البشر ، ولهذا قال :

ولي دونكـم أهلون سيد عملّس وأرقط زهلول وعرفـاء جيـأل

فقومه الذين اختارهم دون أهله هم الذئب (السيد العملس) ، والنمر (الأرقط الزهلول) والضبع (العرفاء الجيأل) .

وأحسب أن المرارة القاسية التي دفعت « الشنفرى » لاتخاذ الأهل من مثل هذه السباع الكاسرة لهي ثمرة اجتماعية واسعة النتائج لهذا النظام القبلي الجاهلي الذي كان الفرد ينوء وحده بمواجهته والذي كانت الجماعات القليلة العدد تنوء به كذلك . واتخاذ الأهل من سباع البر الضارية محاولة يائسة مرة لسد هذا العوز الاجتماعي الذي كان يواجهه الشنفرى الصعلوك . ومن ثم خلع الشنفرى على هؤلاء الأهل المصطفين الأخلاق التي كان يحلم بها ويفتقدها فيمن لفظوه وأوقعوه في هوة الضياع :

هم الأهل لا مستودع السرّ ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

واذن فالشنفرى كان يطمع في أن يمارس بشريته الجاهلية فيجني ما يجني ويلوذ بالقبيلة فلا تخذله ، ولا تذيع له سرا ، ولا تسلمه للمهالك ، ولكن هيهات ! هيهات !

ولم يكن « الشنفرى » ضعيف الادراك لموقفه المر القاسي هذا ، ولا لمحاولاته التي كان يعمد اليها لتغطية هذا الموقف ، ولهذا لم يكتف بمثل هذا الهجاء لقومه اذ فضل عليهم السباع الكاسرة ، ويئس منهم ، بل قال :

واني كفاني فقد من ليس جازيا بحسنى ولا في قربه متعلّـل

ثلاثـة أصحاب ، فؤاد مشيّع وأبيض اصليت وصفراء عيطل

وكأنما رده واقعه الأليم الى تلمس ما يعوضه من هؤلاء الأهل الذين عقوه وجزوه بالسيئة ، وكان من قربهم له مساءة أي مساءة فوجد هـذا العوض في أصحاب ثلاثة ليسوا من البشر ، وليسوا كذلك من الحيوان ، وانما هم قلبه الشجاع (فؤاده المشيع) ، وسيفه المصلت (الأبيض الأصليت) ، وقوسه التامة الخلق (الصفراء العيطل) .

ولهذا اندفع الشنفرى يعدد محاسن قوسه اندفاعا يشبع فيه جوعه الاجتماعي لسند القبيلة ، فقال عن القوس :

هتوف من الملس المتون يزينهـا رصائع قد نيطت اليها ومحمل

اذا زلّ عنها السهم حنت كأنها مرزّأة ثكلى ترنّ وتعول

وبهذا بلغ الأداء الشعري الجميل بين يدي الشنفرى منزلة من أرفع المنازل التعبيرية ، فقد استطال خياله الغني الحالم الرائع ، فأوفى بـه على مشارف أخذ يستمطرها بعض ما كان يفتقده بل يحسه من جوع في المشاركة الاجتماعية .

وما أحسب أن الشنفرى كان عابثا حين جعل السهم هي التي تزل عن أمها القوس بغير ارادتها فتحن هذه الأم حنينا لا نلمسه الا لدى من رزئت بأبنائها فرنت باكية وأعولت حزينة . وهل أجمل من هذا الحلم الغني بحنان الأم الذي رنت اليه نفس الشنفرى بسبب قسوة أمه القبيلة ، تلك القسوة الطاغية عليه ؟

واذا كان الضياع والجوع الاجتماعي من أكبر الهموم التي اضطلع الفن الشعري في هذه القصيدة بحملها ، فان الجوع المادي كذلك كان من أكبر الهموم في هذه القصيدة ، وقد اشترك هذان الجوعان اشتراكا رائعا جميلا في بناء هذه القصيدة الفني ، ومن ثم قال الشنفرى :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستف ترب الأرض كيلا يرى له عليّ من الطول امرؤ متطوّل

---

(١) عقيرته : نفسه ، أي ان الجنايات التي ارتكبها الصعلوك (أي الشنفرى) تتبارى في اقتناص نفسه وحياته .

ثـم قال :

وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطـة ماريّ تغار وتفتل

وهنا تبلغ بالشاعر سورة الجمال الفني الرفيع (ان جاز أن ندعوها سورة) فيصور له خياله الخصب البعيد الآماد صورة تشبه صور المسرحيين ، أبطالها من ذئاب اختار الشاعر زعيمها مثالا رائعا له ، وجعل من نظائر هذا الزعيم النحيلة حلما من الأحلام التي تشبع الشاعر جوعه في المشاركة الاجتماعية :

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا — أزلّ تهاداه التنائـف أطحل
غدا طاويا يعارض الريح هافيـا — يخوت بأذناب الشعاب ويعسل
فلما لـواه القوت من حيث أمّـه — دعا فأجابته نظائـر نحّـل
مهلهلة شيب الوجـوه كأنها — قداح بكفّي ياسر تتقلقـل
مهرتـة فوه كأن شدوقهـا — شقوق العصيّ كالحـات وبسّل
أو الخشرم المبعوث حثحث دبره — محابيض أرداهـنّ سام معسّل
فضجّ وضجّت بالبراح كأنها — وايّـاه نوح فوق علياء ثكّل
وأغضى وأغضت واتّسى واتست به — مراميل عزّاها وعزّتـه مرمـل
شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت — وللصبر ان لم ينفع الشكو أجمل
وفـاء وفاءت بادرات وكلّها — على نكظ مما يكاتم مجمـل

وأنا أحب أن أنبه لهذه الكوكبة الكثيرة من صور المشاركة التي تعرض أحلام الشاعر في تعويض الجوع الاجتماعي الشديد أثناء عرض الجوع المادي القاسي ، فليس عبثا أن يقول الشنفرى : فضج وضجت ، وأغضى وأغضت ، واتسى واتست به ، وعزاها وعزته ، وشكا وشكت ، وارعوى وارعوت ، وفاء وفاءت ، ثم يكاتم من دون يكتم ، لأن الفن الشعري بين يدي هذا الشاعر الرائع كان نسيج حياة وبناء هموم .

ومتى عمدت هذه الصورة التي تحمل في أعطافها ملامح من صور المسرحيين الى هذا اللون من المشاركة الوجدانية بين زعيم الذئاب الذي يمثل الشاعر ويرمز اليه ، وبين نظائره النحيلة من الذئاب الجائعة ، لقد عمدت الصورة الى ذلك حين تملصت من بين يدي الشاعر جميع فرص الصيد ، أي حين لواه القوت من حيث أمه ، أو حين أرجعه السعي وراء القوت الى حيث منطلقه الذي انطلق منه اليه .

لم يكن الشنفرى كذلك عابثا حـين صور نفسه بزعيم الذئاب الذي كانت تتقاذفه الصحاري أو التنائف ، والذي جد مع ذلك كله وراء فرص الصيد يعارض الريح ويضرب في أذناب الشعاب ، ولكن ذلك لم ينفعه ، بل أفضى به الى حيث كان قد بدأ .

وليس عبثا كذلك هذا التصوير البارع الجميل الذي صور به الشنفرى أصدقاء الزعيم من الذئاب الجائعة التي أجابت دعاءه ، فقد صورها صورة أخاذة الدلالات حين جعلها : « مهلهلة ، شيب الوجوه » ، وكأنها القداح التي وقعت في كفي مقامر يصرفها تصريفا كله ضياع لها . وكذلك حين قال انها مهرتة : كأن شدوقها شقوق العصي .

وأنا أحب أن أنبه هنا الى صيغة الجمع في « شدوق » فهي تحمل بانتمائها لجموع الكثرة دون جموع القلة أوسع ما أراد الشاعر أن يحملها من دلالات .

أما صورة الخشرم من النحل الثائر الذي هاجه بعصيه جاني العسل فمن هذه الدلالات الواسعة التي جرى وراءها الشاعر ليصور صورة الجوع في ذئابه الذين اختارهم لحمل ما كان يعنيه من هم كبير ، سواء من جوعه المادي أو من جوعه الاجتماعي .

ولم يكتف الشاعر بخلع أحلامه على هذه الابطال من مجموعة الذئاب ، وانما مضى يغذ بخياله السير وراء صورة لفخره ، فاختار من أبطال الجو في السرعة والجرأة ، القطا الكدري ، وسلط على مجموعة منها أضواءه الفنية والنفسية ، وكأنه مصور بارع عرف أين يلتقط لقطاته البالغة في غنى الدلالات .

ومن ثم اختار أنسب الأوقات لجرأة القطا الكدري وأبعثها لها على السرعة ، فكان وقت القرب ، أي الليلة التي تسبق يوم ورودها الماء ، وهي ليلة تبلغ فيها شخصية العطش أشد وطأتها ، وتبلغ فيها في الوقت نفسه بواعث النشاط لدى هذه القطا أشدها لاستشعارها الاقتراب من الماء الذي تتنسمه وتتحرق شوقا اليه .

ولم اختار الشنفرى هذه الصورة الرائعة للقطا الكدري ؟ وركز عليها مثل هذه الأضواء ؟!

لقد اختار أبطال الجو هذه في مثل هذه الظروف الغنية بالدلالات ليشعر نفسه بشيء من بواعث الفخر ، وليبين أنه على جوعه المادي والاجتماعي ذو قدرة رائعة على السبق ، سبق أبطال الجو والتفوق عليها .

وهنا تعود لنا صورة الجري وراء المشاركة الاجتماعية التي تمض الشاعر وتعنيه ، بل تقلقه وتأخذ عليه كل سبيل في هذه القصيدة الرائعة ، ومن ثم تتجه أحلامه لتحقيقها حتى في فخره وتصوره أن ثمة سباقا قام بينه وبين جماعات من القطا الكدري في سبيل ماء قصده الفريقان المتسابقان ، فسبق الشاعر خصومه وبزها وتفوق عليها :

وتشرب أسآرى القطا الكدر بعدما — سرت قربا أحناؤها تتصلصل
هممت وهمّت وابتدرنا وقصّرت — وشمّر منـي فـارط متمهّـل
فولّيت عنها وهي تكبو لعقره — يباشره منها ذقـون وحوصل
كأن وغاهـا حجرتيـه وحولـه — أضاميم من سفر القبائل نزّل
توافين من شتّى اليـه فضمها — كما ضمّ أزوار الأصاريم منهل
فعبّت غشاشا ثم مرّت كأنها — مع الصبح ركب من احاظة مجفل

والجمال في هذه الأبيات يفيض في هذه الأحلام التي كان يرنو اليها الشنفرى بمشاركته غيره من أبطال الحياة في سباق ثم تفوقه عليها تفوقا يظهره مبالغا في المقدرة ، ويظهرها وقد تعبت وأعياها تفوقه على بطولتها ، فهي تكبو لحوض الشرب ولا تستطيع أن تطير فوقه مثلا ، وانما تكتفي بأن تتحسسه بذقونها وحواصلها .

وعنصر الصوت والجلبة والغوغاء من حول حوض الشرب من مكملات هذه الصورة الجميلة ، ولذلك قال الشاعر :

كأن وغـاهـا حجرتيه وحولـه — أضاميم من سفر القبائل نزّل

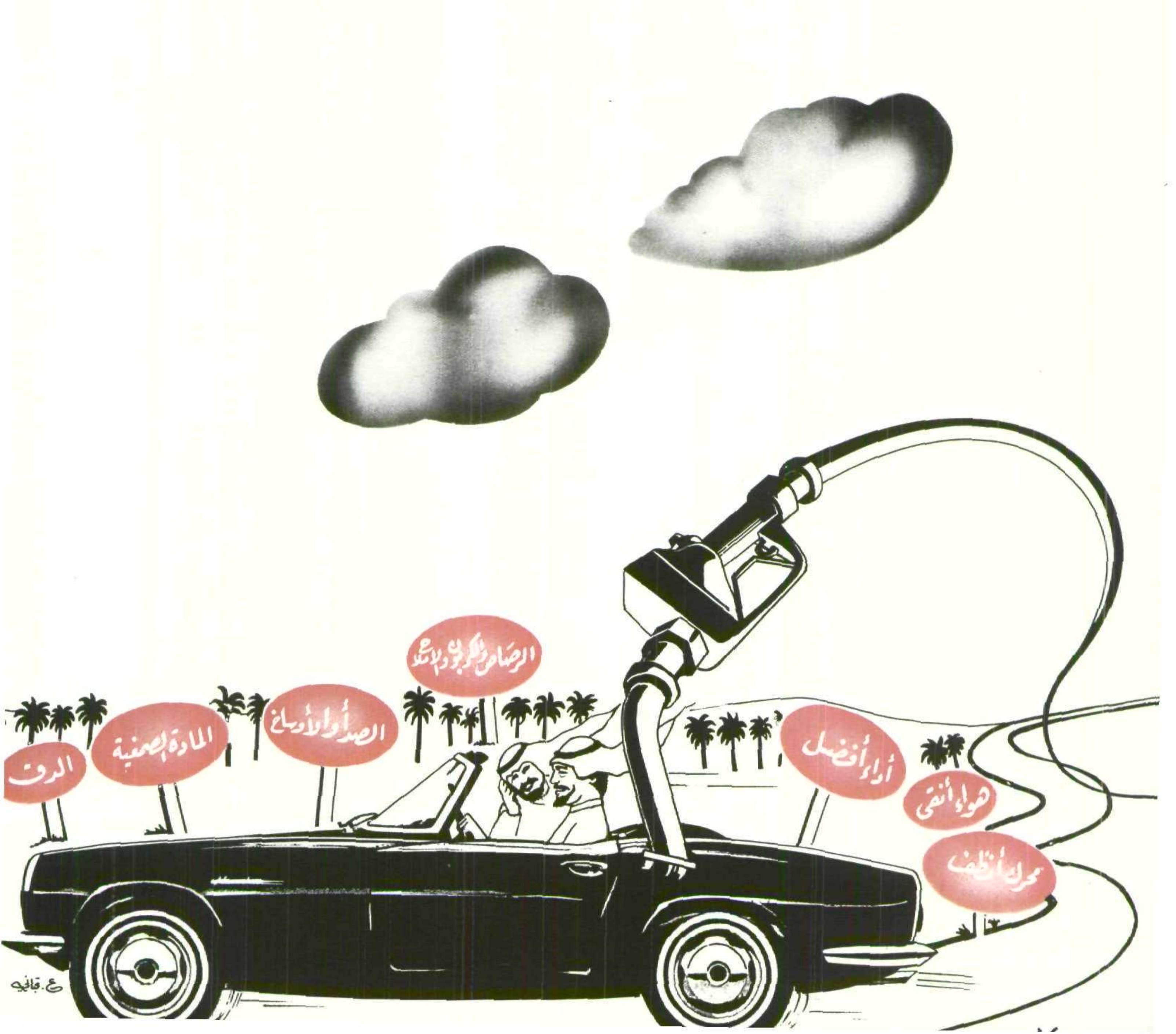
وإذا كان السعي وراء تثبيت النفس ووراء المشاركة الاجتماعية بفخر صور للشاعر هذا اللون من السبق بينه وبين القطا الكدري في ظروف مختارة سعيا مقبولا ، فان كراهية الشاعر لما صنعته القبيلة به من صعلكة وتضييع قد دفعته الى نقمة شاذة في فخر بأفعال تنبو عنها المشاعر الانسانية الكريمة ، فقد وصف غزوة له في ليلة من ليالي البرد القارسة المنحوسة قام بها فقتل آباء وأزواجا قتلا شنيعا أثمر أرامل وأيتاما :

وليلة نحس يصطلي القوس ربّها : — وأقطعه اللاتي بها يتنبّـل
دعست على غطش وبغش وصحبتي — سعار وارزيز ووجر وأفكـل
فأيّمت نسوانا وأيتمت الـدة — وعدت كما أبدأت والليل أليل
وأصبح عنّي بالغميصاء جالسا — فريقان مسؤول وآخـر يسأل
فقالوا لقد هرّت بليل كلابنا — فقلنا أذئب عس أم عسّ فرعل
فلم تك الاّ نبأة ثم هوّمـت — فقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل
فان يك من جنّ لأبرح طارقا — وان يك انسا ماكها الأنس تفعل

وأنا أحب أيضا أن أنبه الى هذه المقدرة الشعرية الفائقة في تصوير جو الغزو بمسحة قصصية من برد يحمل رب القوس على أن يضحي بها مـع حبه الشديد لهـا وأهميتها له وعلى أن يضحي بسهامه أيضا أو أقطعه التي يتخذ منهـا نباله (يتنبل) ، ومن رذاذ (أو غطش) وظلمـة مغبشة أو بغش حيث لا يصحب الشاعر في مثل هذا الجو الا سعار الجوع الكافر وزلزاله والخوف أو الوجر والرعدة التي تحف بهذه المشاعر كلها أي الأفكل .

أما بعد ، فأرجو أن يكون قد اتضح جانب من فن هذا الشاعر الكبير شعرا ، المرزأ بهمومه الاجتماعية رجلا ، وأن يكون من مثل هذا الشعر ما يبين لنا الصلات التي يبتغيها بعض الدراسين من سفارة الشعر عن هموم ذويها وعصورهم ■

أثر فعالية البنزين على عمل محرك السيارة



يعتبر « البنزين » اليوم من أهم المنتجات البترولية المكررة القابلة للاشتعال والتبخر في المحركات ذات الاحتراق الداخلي على اختلاف أنواعها . أما مادته الأساسية فهي النفتا الخفيفة أو النفتا الثقيلة أو مزيج منهما . وتتحول هذه المادة الى بنزين صالح للاستعمال بعد معالجتها بالتهذيب واضافة مواد كيماوية تكسبها مقاومة للصدأ والتجمد وتحول دون تراكم المواد الصمغية والرصاص والكربون والأملاح ، التي تؤثر بدورها على فعالية المحرك واطالة عمره . ومن ميزات عملية التهذيب انها تساعد على رفع درجة الأوكتان في البنزين ، أي تحسين اشتعاله .

وتتطلع شركات الزيت دوما الى تحسين طرق انتاج البنزين تمشيا مع متطلبات تطوير المحركات ذات الضغط العالي التي تعتمد فعاليتها وعملية الاحتراق الداخلي فيها الى حد كبير على نوع البنزين المستخدم فيها . وتبقى هذه الشركات ، بوصفها المصنعة للبنزين ، على اتصال مستمر مع الشركات المنتجة للمحركات حرصا منها على مواكبة التطور وانتاج المحروقات الملائمة لهذه المحركات .

لقد ظل البنزين لنحو ثمانين سنة يستعمل كوقود للمحركات دون أن يعيره أحد انتباها يذكر من حيث تطويره وتحسين خواصه . ومعلوم أن زيت سمك السردين وزيت جوز الهند ، أو أي زيت حيواني أو نباتي آخر ، يمكن تحويله الى وقود لتشغيل المحركات . فهذه الزيوت جميعها تتألف بصورة أساسية من مركبات معقدة لذرات من الهيدروجين والكربون يمكن تجزئتها بواسطة الحرارة والضغط واعادة تركيب جزيئاتها لتصار بالتالي الى بنزين . بيد أن عملية استخلاص البنزين من تلك المواد عملية معقدة وباهظة التكاليف .

ولما كان البنزين عديم اللون فانه يضاف اليه مادة خاصة تكسبه لونا يميزه عن غيره من أنواع الوقود كالديزل والكيروسين وعن الماء ايضا . وتختلف مواد تلوين البنزين من نوع الى آخر . وقد كانت محطات خدمة السيارات فيما مضى تثبت وعاء من الزجاج مليئا بالبنزين فوق كل مضخة للتعبئة ليتسنى لأصحاب السيارات معرفة أنواع البنزين بواسطة الأصباغ المختلفة ذات الألوان الأحمر والقرنفلي والأزرق والأصفر والبرتقالي . ومهما يكن لون البنزين أو اسمه ، فان لهذا المزيج طاقة كبيرة . فملء جالون واحد منه يكفي لتسيير سيارة تبلغ حمولتها طنين لمسافة ٢٥ كيلومترا أو أكثر بسرعة لا يستطيع أسرع حيوان مجاراتها .

فني سعودي يقوم بفحص تحليلي لتحديد نسبة المواد الكبريتية في عينة من الزيت الخام .

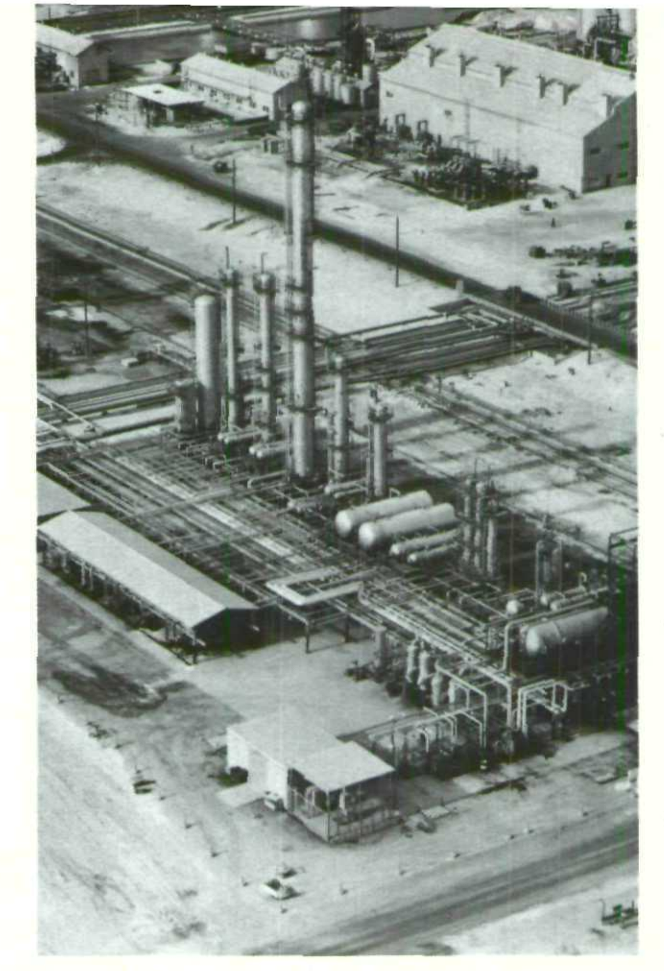
ولقد رافق تطور صناعة السيارات تطور مطرد في صناعة الوقود والمحروقات . فاذا نظرنا اليوم الى أنواع البنزين التي تنتجها شركات الزيت ، فاننا نجد أن أدناها جودة يفضل أجود الأنواع التي كانت معروفة ومستعملة في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية . وهذا ما يؤكد لنا أن البنزين له صفات مذهلة يمكن تطويرها وتحسينها بحيث تفي بمتطلبات المحركات الحديثة ذات الضغط العالي .

ويشمل التحسين أكثر ما يشمل قابلية تطاير البنزين(١) وزيادة نسبة الأوكتان فيه ، واضافة المواد الكيماوية اليه .

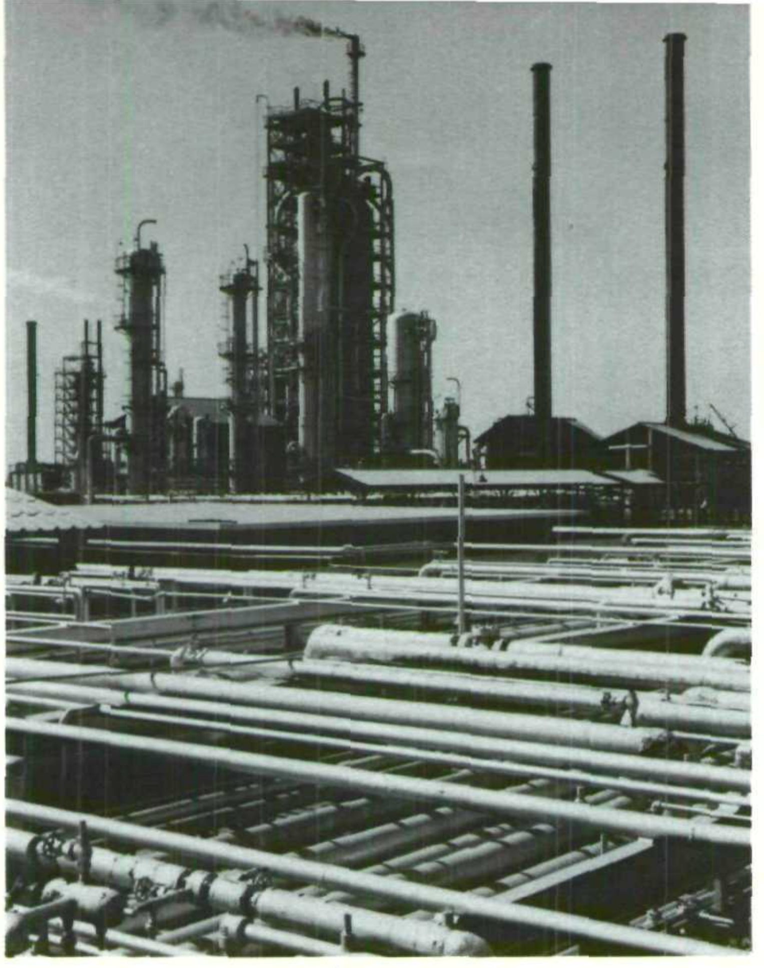
فسرعة التبخر تساعد على تشغيل السيارة بسهولة وسرعة ويسر ، حيث يتولد عن تشغيلها حرارة يتحول البنزين اثرها الى بخار وبذلك تتم عملية الاحتراق . وكل ما تحتاجه عملية الاحتراق ، بالاضافة الى مزيج معين من بخار البنزين والهواء ، شرارة واحدة . ويتطلب الطقس البارد مزيجا تكون فيه نسبة مواد البنزين القابلة للتبخر أكثر مما يتطلبه الطقس الحار . وبفضل التحسينات التي أدخلت على البنزين في السنوات الأخيرة أصبح من الممكن تشغيل السيارة ، اذا كانت في حال جيدة ، بسرعة في أبرد الأيام حتى ولو كانت مزودة بنوع من أنواع البنزين الخاصة بالطقس الحار . وعلى كل فان شركات الزيت تأخذ بعين الاعتبار ، عند انتاج البنزين ، اختلاف درجات الحرارة في كل بلد وفي كل موسم .

وثمة ميزة أخرى تكمن في جودة البنزين ، هي درجة الأوكتان التي كثيرا ما يساء فهمها . فالأوكتان ، بصورة عامة ، لا يدل على نوعية البنزين ، وانما يدل على قدرته على الاحتراق دون حدوث أي دق في المحرك ، الأمر الذي ينجم عن احتراق البنزين احتراقا غير متساو . وتتراوح نسبة الأوكتان في أنواع البنزين الممتازة من ٩٥ الى ١٠٥ درجات . ولتحديد درجة الأوكتان في البنزين يلجأ عادة الى جدول قياسي للوقود تحت حالات التشغيل نفسها . واحدى الطرق التي يمكن بواسطتها زيادة نسبة الأوكتان هي اضافة رابع أثيل الرصاص الى الوقود ، وذلك لمنع حدوث الدق في المحرك . وعملية اضافة مادة الرصاص هذه الى البنزين لمنع الدق في المحرك ليست حديثة العهد ، وانما يرجع اكتشافها الى عام ١٩٢١ . بيد أن اضافة مادة رابع أثيل الرصاص الى البنزين أصبح موضع نقاش في الآونة الأخيرة . اذ يرى المهندسون ، العاملون على تطوير جهاز لمكافحة التلوث الناجم عن ماسورة العادم ، أن مادة الرصاص قد تعوق فعالية هذا

(١) « Volatility » ، وهي درجة الحرارة التي يتبخر عندها البنزين .



منظر جوي لمعمل الألكلة الذي ينتج الألكيلات ذات الأوكتان العالي التي تمزج بنوع خاص من البنزين المهذب هيدروجينيا لصنع وقود الطائرات .



جانب من وحدة التهذيب الهيدروجيني في رأس تنورة التي يجري فيها معالجة البنزين ورفع درجه الأوكتان فيه .

الجهاز عندما يركب في محرك السيارة ، الأمر الذي قد يتطلب انتاج نوع من البنزين خال من الرصاص حتى يعمل الجهاز بدقة ولمدة أطول من الزمن . غير أن ملايين السيارات المنتشرة حاليا في العالم ، والتي ستظل تعمل لسنوات عديدة ، ستظل في حاجة الى نوع من البنزين يحتوي على نسبة من مادة رابع أثيل الرصاص .

وقد قامت احدى شركات الزيت مؤخرا ، نتيجة لبعض الدراسات التي أجريت على تحسين نوعية البنزين ، بتطوير نوع من البنزين المتوسط ، أطلق عليه اسم « BIG PLUS » ويحتوي على نسبة أقل من الرصاص وعلى درجة أعلى من الأوكتان . وسيجري استعمال هذا النوع الجديد من البنزين ريثما يتم صنع الأجهزة الخاصة بمنع التلوث التي يجري العمل على تطويرها حاليا . ويحوي هذا النوع المستحدث من البنزين على جزء واحد من مادة رابع أثيل الرصاص لكل ١٠٠٠٠ جزء من البنزين . وجدير بالذكر أن وجود هذه النسبة في البنزين باتت ضرورية نظرا لأن الدراسات قد أظهرت ان صمامات العادم في بعض السيارات المستخدمة حاليا قد يلحق بها التلف اذا ما استعمل في هذه السيارات بنزين يخلو تماما من مادة الرصاص .

ومن خلال الدراسات والاختبارات التي أجريت على أنواع البنزين ، فقد تبين أن ازالة ٧٠ في المائة من الرصاص الموجود في البنزين قد يترتب عليه الحاق اضرار بالمحرك نفسه . وهذا صحيح اذا لم تستعمل مادة أخرى تحل محل مادة رابع أثيل الرصاص . ويمكن الاستغناء عن الرصاص بتكرير المادة الأساسية للبنزين تكريرا جيدا لانتاج بنزين تتراوح درجة الأوكتان فيه بين ٩٦ و ٩٧ ، أي ما يعادل خواص البنزين المتوسط . ونسبة الأوكتان هذه تفي بنحو ٩٠ في المائة من متطلبات المحرك . ومن ميزات البنزين الجديد الآنف الذكر انه بالاضافة الى احتوائه على نسبة أقل من الرصاص ، يحتوي على عنصر من شأنه أن يجعل المبخر والمحرك نظيفين ويحول دون تراكم المواد الصمغية والأملاح والكربون ، كما انه يجعل المحرك وشمعات الاشتعال وكاتم الصوت تعمر مدة أطول .

وفي المدى الطويل ، تعتزم شركات البترول ازالة مادة الرصاص تدريجيا من جميع أنواع البنزين التي تنتجها ، غير ان ذلك قد لا يتحقق قبل نحو عشر سنوات من الآن . ان وجود نسبة عالية من الأوكتان في أنواع البنزين المستعملة اليوم ضروري لمواجهة متطلبات المحركات الحالية من جهة ، ولأن هذا الأمر يقتضي اجراء تغيير جذري في معدات التكرير والتوزيع ، من جهة أخرى . ولدى المقارنة بين أنواع البنزين ، نجد أن المواد الكيماوية المضافة اليها تعتبر مقياسا لتحديد نوعيتها ، كما انها تساعد على جعل المحرك يعمل بانتظام ولمدة أطول . ومن بين هذه المواد الاضافية ، منظف يساعد على ازالة الرواسب والأوساخ التي تتجمع داخل المبخر من جراء امتزاج البنزين مع الهواء قبل عملية الاحتراق ، كما يساعد على منع تراكم الأوساخ داخل « حوض المحرك — Crankcase » بسبب عدم احتراق أبخرة البنزين احتراقا كليا أو جزئيا .

ومن العوامل الأخرى التي تؤثر في فعالية المحرك الرواسب الناجمة عن تراكم الصدأ ،

والتي قد تتسبّب في سد نضاحـات المبخر « Carburetor Jets » وتوقف المحرك . وللتغلب على هذه المشكلة فانه يلجأ الى اضافة مادة خاصة الى البنزين مقاومة للصدأ . وتتم عملية اضافـة هذه المواد اما في مرافق المزج بمرافق التكريـر أو الخزانات الأرضية التابعة لمحطات خدمـة السيارات . كما ان هناك مادتين أخريين تضافان الى البنزين لمنع تكوّن الجليد في المبخر خلال الطقس البارد . فالمادة الأولى تساعد على خفض نقطة التجمد للماء المتكثف من الهواء وتمنع تكوّن الثلج . أما المادة الثانية فتساعد على تغطية أجزاء المبخر بطبقة تحول دون وصول الثلج اليهـا والالتصاق بها .

ومن ناحية ثانية فان الهواء نفسه يعتبر أيضا مصدر ضرر . فالأكسجين في الهواء عندمـا يتفاعل مع البنزين تنتج عنه مادة صمغية تتسبب في سد المبخر ، بالاضافة الى أن البنزين عندما يتفاعل مع الأكسجين والمواد المعدنية يؤدي الى احداث تأكسد ينتج عنه تكوّن مادة صمغية . وللحيلولة دون تكوّن هذه المواد الصمغية ، يلجأ الى استعمال مادة تساعد على الحد من فعالية المواد المعدنية وجعلها غير قابلة للتأكسد . وبالرغم من توفر العديد من المواد الكيماوية المضافة ، فان العمل ما زال جاريا من أجل انتاج مواد أخرى اضافية لتحسين خواص البنزين ، وذلك بغية المحافظة على المحرك ذاته وتحسين ادائـه ، كما يجري في الوقت نفسه فحص المواد الأساسية ، المكوّنة للبنزين وذلك من أجل ايجاد طرق لتحسينها .

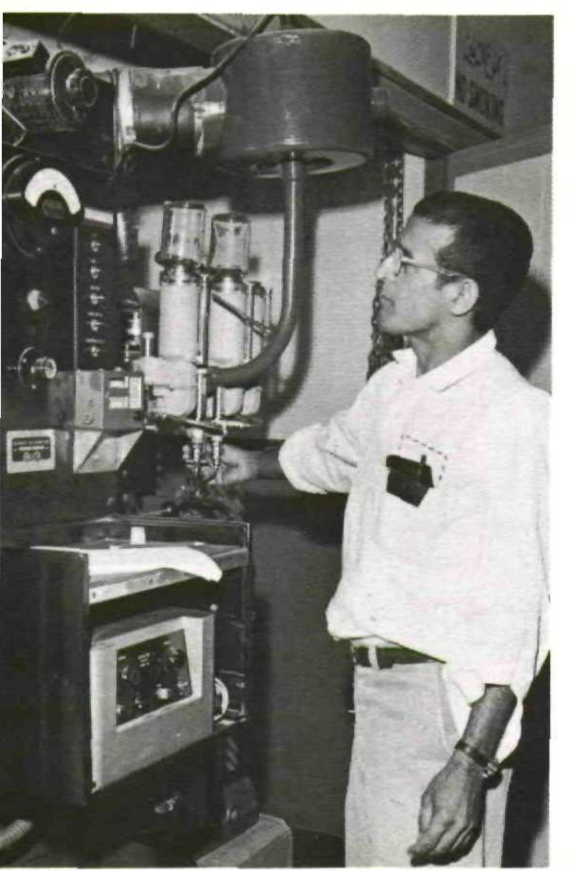
ويعتقد مهندسو السيارات بصورة عامة ان أجهـزة الاطـلاق في المبخر « Emission Control Devices » الـتي تتعرض الآن لسلسلة من التجارب والاختبارات ، تستطيع ، مع استعمال وقود مناسب ، أن تجعل عملية الاحتراق الداخلي للمحرك منتظمة وخالية من مصادر التلويث . كما ان خبراء البترول ، في الوقت نفسه ، واثقون من أنهم سيتمكنون من مواجهة المتطلبات الـتي تقتضيها مراحل التطور الـتي ستطرأ على أجهزة المحرك في المستقبل .

وشركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) بوصفها احدى الشركات الكبرى المصنعة للبنزين تتطلع أيضا ، على الدوام ، نحو تحسين طرق انتاج البنزين لتماشي التقدم المستمر في صناعة الزيت ولتواجه الطلبات المتزايدة على أنواع الوقود المحسنة من مختلف الأسواق العالمية . وهي تنتج في الوقت الحاضر أربعة أنواع مختلفة من بنزين السيارات تتراوح نسبة الأوكتان فيها بين ٨٣ و ٩٥ درجة . ففي النوع العادي تبلغ نسبة الأوكتان ٨٣ ، وفي المتوسط ٩٠ ، وفي الممتاز « ب » ٩٣ ، وفي الممتاز « أ » ٩٥ أو أكثر . وتصدر جميع هذه الأنواع الى الخارج . أما البنزين الذي يستهلك داخل المملكة العربيـة السعودية فهو نوعان: عادي وتبلغ نسبة الأوكتان فيه ٨٣ درجة ، وممتاز وتبلغ نسبة الأوكتان فيه ٩٥ درجة . وهذه الأنواع جميعها تحتوي على نسبة ضئيلة ، من الرصاص . أما بالنسبة الى وقود الطائرات ، فتنتج « أرامكو » نوعا واحدا منه يعرف بوقود النفاثات ، وهو يصنع من مزيج من النفتا المعالجة مع الكيروسين ، ويتم تصديره بكميات كبيرة الى الخارج ، ويستعمل في الوقت نفسه للاستهلاك الداخلي .

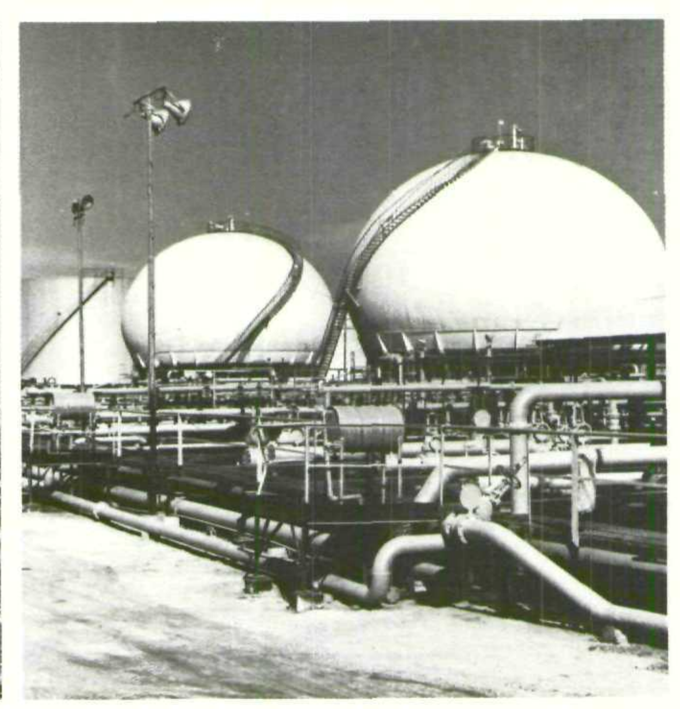
هذا ، ويمر انتاج البنزين في أرامكو بمراحل عديدة من عمليات التكرير قبل أن يصل الى أيدي المستهلكين . وآخر تلك المراحل عمليتا التهذيب والمزج . ويدخل في تركيبه النفتا الخفيفة ، والنفتا الثقيلة ، والبنزين المهذب حراريا ، والبنزين المهذب بالوسيط الكيماوي . ويجري التهذيب في وحدتين تابعتين لمعمل التكرير في رأس تنورة ، هما « وحدة التهذيب الحراري » وتبلغ طاقتها القصوى ١٣ ألف برميل يوميا من النفتا الثقيلة أو مزيج من النفتا الثقيلة والخفيفة ، و« وحـدة التهذيب الهيدروجيني » أو «التهذيب بالوسيط الكيماوي» و تبلغ طاقتها القصوى نحو ١٤٥٠٠ برميل في اليوم الواحد . فعند تلقيم المهذب الحراري بالنفتا ورفع حرارتها بواسطة الضغط حتى تصل الى ١٠٥٠ درجـة فرنهايت ، يحدث نوع من التكسير البسيط في النفتا وتنفصل جزيئاتها عن بعض ، ثم تعود لتتحد في جزيئات يختلف تركيبها الداخلي ، تمهيدا لمعالجتهـا كيماويا ، حيث تتحول الى بـنزين حراري مهذب ، يمزج فيما بعد مع النفتا الخفيفة ، ويضاف اليه نسبة



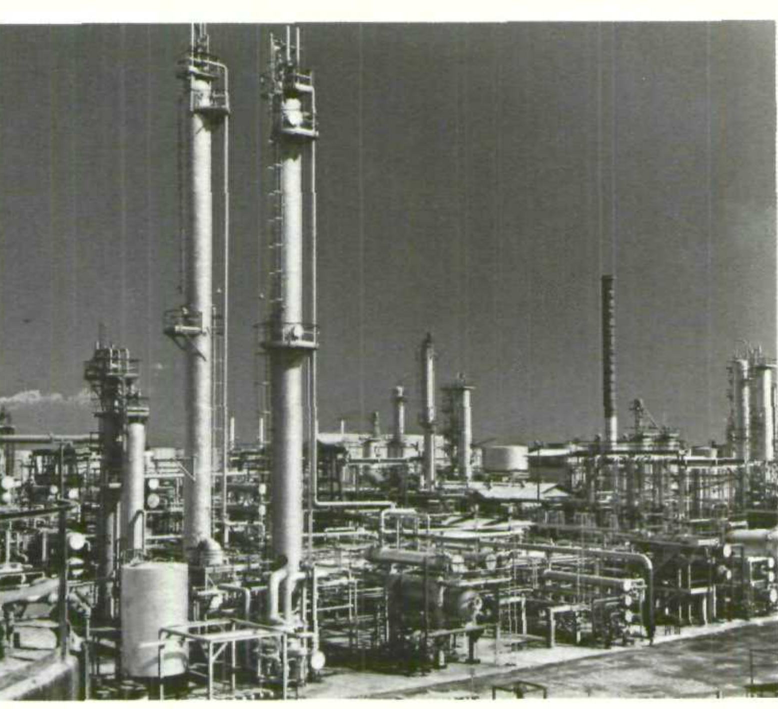
أحد الموظفين العرب السعوديين في ملابسه الوقائية يضيف مادة رابع أثيل الرصاص الى البنزين لتحسين خواصه .



في أحد أركان مختبر فحص منتجات الزيت برأس تنورة يقوم أحد الفنيين باجراء فحص خاص لمعرفة عدد الأوكتان في عينة من البنزين .



منظر عام لوحدة المزج التابعة لمعمل التكرير في رأس تنورة .



منظر عام لوحدة تركيز النفتا التابعة لمعمل التكرير في رأس تنورة ، حيث تتم زيادة المواد المتطايرة التي تساعد على الاشتعال .

ضئيلة من مادة رابع أثيل الرصاص للحصول على بنزين عادي تبلغ نسبة الأوكتان فيه ٨٣ .

والمهذب الهيدروجيني أو المهذب الكيماوي شبيه بالمهذب الحراري ، في اعتماده على الحرارة والضغط المرتفعتين ، غير انه يستخدم وسيطا كيماويا ، في حين أن الأخير يستخدم مواد كيماوية . ومن شأن الوسيط انه يحدث تغييرا كيماويا في المواد الأخرى دون أن يطرأ عليه هو نفسه أي تغيير . ولا يقتصر عمل المهذب الهيدروجيني على تقسيم الجزيئات الكبيرة الى جزيئات أصغر فحسب ، بل يحدث « تكوين المشابهات » ، أي ان عدد الذرات في الجزيء يظل ثابتا ، لكن ترتيبها يتغير . وينتج عن هذه العملية « البنزين المهذب بالوسيط الكيماوي » الذي اذا مزج بالنفتا الخفيفة وأضيفت اليه نسبة ضئيلة من رابع أثيل الرصاص يتم الحصول على بنزين ممتاز تبلغ نسبة الأوكتان فيه ٩٥ أو أكثر . ولمعالجة النفتا المستعملة في بنزين السيارات ووقود النفاثات ، يوجد في مرافق التكرير برأس تنورة معمل « ميروكس » تبلغ طاقته ٣٢٠٠٠ برميل يوميا . ومن مهام هذا المعمل انه يحسن النفتا بتحويل مركبات المركبتان ، وهي مركبات تحتوي على الكبريت ولها رائحة كبيرة ، الى مركبات ديسلفيد لا رائحة لها.

أما بالنسبة الى البنزين الممتاز فيستعمل مزيج من البنزين المهذب بالوسيط الكيماوي والنفتا الخفيفة ونسبة قليلة من مركب البوتان من أجل زيادة معدل ضغطه . ولتحسين درجة الأوكتان في البنزين وتنظيم سير محرك السيارة تضاف مادة رابع أثيل الرصاص بنسبة ٣ سم مكعب الى الجالون الواحد . ولمنع تراكم الرواسب على مبخر السيارة ، تضاف مادة مانعة للتصمغ بنسبة ٥,٥ أرطال الى كل ألف برميل من المزيج ، كذلك تضاف مادة كيماوية لابطال فعالية المواد المعدنية بنسبة رطلين الى كل ألف برميل .

ولتمييز البنزين الممتاز عن غيره من أنواع البنزين الأخرى بسهولة ، فان مادة حمراء اللون تضاف بنسبة ١,٨٥٢ رطل الى كل ألف برميل من البنزين الممتاز للتأكد من أن مادة رابع أثيل الرصاص قد أضيفت اليه .

أما بالنسبة الى البنزين العادي ، فيستعمل مزيج من البنزين المهذب بالوسيط الكيماوي أو البنزين المهذب بالحرارة مع النفتا الخفيفة والنفتا الثقيلة . كما يضاف اليه من أجل تحسين خواصه ، خليط من رابع أثيل الرصاص ورابع مثيل الرصاص بنسبة ٣ سم مكعب الى الجالون الواحد . أما المادة الصمغية فانها تضاف فقط عندما يستعمل البنزين المهذب بالحرارة في المزيج وتبلغ نسبتها ١٠ أرطال الى كل ألف برميل من هذا البنزين . كما تضاف اليه مادة ذات لون برتقالي لتلوينه وتمييزه من البنزين الممتاز وللتأكد من أن مادتي رابع أثيل الرصاص ورابع مثيل الرصاص قد أضيفتا اليه . وللحصول على هذا اللون البرتقالي ، فانه يلجأ الى اضافة نسبة ٠,٩٢٥ من الرطل من مادة صباغ برتقالية اللون ، و ٠,٩٢٥ من الرطل من مادة صباغ حمراء اللون الى كل ألف برميل من البنزين .

أما بالنسبة الى وقود الطائرات ، فان « أرامكو » تنتج وقودا للنفاثات تدخل في تركيبه مادتا الكيروسين والنفتا اللتان تخلطان بنسب معينة في صهريج المزج . كما تضاف اليه مادة منع التجمد في فرضة الشحن ، وذلك حسب طلب المشتري .

وبعد اتمام عمليات تهذيب البنزين ومزجه واضافة المواد الخاصة اليه ، ترسل عينات منه الى المختبر للتأكد من صلاحيته ، وذلك قبل ضخه الى خزانات الفرضة . كما يجري فحصه مرة أخرى للتأكد من أنه مطابق للمواصفات المطلوبة من قبل الزبائن قبل شحنه على الناقلات الى مختلف البلدان المستهلكة ، أو نقله عبر خط للأنابيب الى ساحة خزانات « بترومين » بالظهران لبيعه محليا ■

عيسى مسلم

تصوير : برنت مودي

من حصاد الكتب

المجاز بين اليمامة والحجاز



تأليف : الأستاذ عبد الله بن خميس
عرض وتحليل : الأستاذ عبد القدوس الانصاري

موضوع الكتاب

موضوع الكتاب ، كما حدده لنا المؤلف ، هو : « ذكر ما يجتازه خط السير ، أو ما يبصره المجتاز يمينا وشمالا ، من أعلام الأمكنة : أرضا ، أو واديا ، أو جبلا ، أو بلادا ، أو سهلا ، أو أثـرا » ...

وهو موضوع تكتنفه الصعوبة من كل جهاته ، فديار نائية تضرب في بطن الصحراء ، وتستكن في جوف الجبال المشمخرة والأودية العميقة ، والسهول الفيح ، ويسكن جلها بادية معنون في النأي عن أسباب الحضارة والتدوين منذ أجيال كثار .. ديار هذه صفتها ، مزاولة تحقيق معالمها وتحديد أبعاد نواحيها الغامضة والتعريف بأسمائها وضبطها هو أمر يوجب معاناة ونصبا ، ويستوجب جهودا شاقة ، ويستدعي ارهاقا مضنيا .

خطة سير المؤلف

شرح لنا المؤلف منهج سيره في تأليفه هذا ، فقال ما ملخصه : « أنه يحدد مكان العلم ، ويضبطه بالشكل ، أو بالحرف ، ويصفه وصفا موجزا ، ويورد جل ما قيل فيه من الشعر ان وجد ، وما ذكره عنه علماء المنازل والديار كله أو جله ان ورد ، ويشير الى الخلاف في التسمية أو التحديد ، ويورد ما قيل فيه من الشعر الشعبي « العامي » مما وصل اليه علمه ، ويبين موقع العلم بالنسبة لديار القبائل قديما وحديثا ، غالبا ، ويشير الى ما وقع فيه أو حوله من حوادث أو قصص أو آيات قرآنية أو أحاديث نبوية أو آثار أو أخبار ، ويذكر مرادفاته ، وما حدث في اسمه من تحوير أو تأثير » .

خطة رشيدة .. ولكننا نأخذ على الكتاب ما نجمله الآن ، وما سنفصله فيما بعد ، من ناحية تبيين المؤلف لمواقع الأعلام — جمع عَلَم بفتح العين واللام — فهو تحديد يعتمد على نظر السائح المجرد . كما ان تعبيره : « ونشير الى ما وقع فيه أو حوله من أحداث أو قصص أو آيات قرآنية أو أحاديث نبوية » أرى فيه شيئا من ناحية قوله : « ما وقع في المكان من آيات قرآنية أو أحاديث نبوية » ، ذلك لأن القرآن والأحاديث النبوية لا تقع ، وانما الآيات تنزل ، والأحاديث تقال وتروى ..

المؤلف رائد من رواد الرحلات

والمؤلف في صنيعه هذا ، أهل لأن يسلك مع رواد الرحلات ، كالمسعودي وابن فضلان ، وأبي مسعر ، وابن جبير ، والأزهري ، والأصمعي ، واضرابهم من رواد المعرفة الذين يضربون في الأرض سياحا باحثين مستطلعين .

لطريق اليمامة الى الحجاز اسم خاص

لم يسم لنا المؤلف اسم « المجاز من اليمامة الى الحجاز » وانما اكتفى بالتعبير المذكور .. ومما اطلعت عليه في هذا الشأن أن العرب سموا ، هذا الطريق وسموا الطرق المسامتة له من البصرة والكوفة والعراق بأسماء خاصة ، متعارفة لديهم ، رواها أصحاب المعاجم الجغرافية العربية منذ القدم ، ووصفوها واستشهدوا على وجود هذه الأسماء لهذه المسميات بشعر من شعر العرب القدامى .. فمثلا طريق البصرة الى مكة سموه « فلْجًا » ، واستشهدوا على هذه التسمية بقول الشاعر :

ان بني العنبر أحموا فلجــا
مـاءا رواءا وطريقا نهجـا(١)

يقول البكري في معجمه : فلج — بفتح أوله واسكان ثانيه بعده جيم — موضع في بلاد بني مازن ، وهو في طريق البصرة الى الكوفة — وفي النسخة المطبوعة في « جوتنجن » بألمانيا (الى مكة) بدلا من (الى الكوفة) — ما بين الحفَيْر وذات العَشْرة ، وفيه منازل للحاج ، وأورد البكري شواهد من أبيات منها قول الأشهب :

ان الذي حانت « بفلج » دماؤهــم
هــم القوم كل القوم يا أم خالد(٢)

وفي معجم البلدان لياقوت الحموي : فلج — بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره جيم — في لغتهم : القسم .. يقال : هذا فلجي ، أي قسمي . والفلج : القهر ، قيل الطريق تأخذ من طريق البصرة الى اليمامة « طريق بطن فلج » . وأنشد للأشهب البيت المتقدم ومعه بيت آخر دليلا على ما ذكره .

وقال أيضا : وقال غيره فلج : واد بين البصرة وحمى ضرية من منازل عدي بن جندب بن عنبر ابن عمرو بن تميم من طريق مكة . ومنه الى مكة أربع وعشرون مرحلة .. الخ (٣) .

أما طريق الكوفة الى مكة فيدعونه باسم « مثقب » قال الشاعر :

ان طريق «مثقب» لحوب ، ومعنى «حوب» : موحش .

وقال شاعر آخـر :

يهْوين من أفجِّه شتى الكـوَر
من «مِثقبٍ» و «مجدل» و «مُنْكَدِر»

ومثلهم من «بصرة» ومن «هجر» (٤) .

و «مثقب» — بكسر أوله ثم السكون وفتح القاف والباء الموحدة — يجوز أن يكون اسم الآلة من «ثقب» الزند ، أو من «ثقبت» الشيء : اذا أنفذته ، كأنه يثقب بالسير فيه تلك الصحاري ، أو كأنه الآلة التي تقدح النار ، لحره وشدته ..

وفي «معجم ما استعجم» للبكري : مثقب — بكسر أوله واسكان ثانيه ، بعده قاف مفتوحة وباء بواحدة — وهو اسم طريق بين اليمامة والكوفة .. قال أبو بكر : كان فيما مضى . وقال جميل :

فقلت لأصحابي على ظهر «مثقب»
الا أيها الحادي بميالة أربع (٥) .

و « طريق اليمامة الى الحجاز » الذي هو موضوع هذا الكتاب ، اسمه هو « طريق المنكدر » .

قال الشاعر :

لا تأخــذ العلم « طريق المنكدر»
ولا تُكارى مــن فُقَيْمِيٍّ عَسِرْ
تسير يومـين ويومـا تنتظـرْ
ولا يـزال قـد أتـاك يعتذرْ
بالأفك والـزور واياك يَغُـر(٦)

وقال ياقوت : المنكدر — بضم أوله ثم السكون — وهو اسم فاعل من «انكدر» عليهم القوم اذا جاؤوا ارسالا يتبع بعضهم بعضا . وهو طريق يسلك بين الشام واليمامة . وفي كتاب «الأمكنة والمياه والجبال»

(١) القبس المختصر من المقتبس . (٢) «معجم ما استعجم» لعبد الله بن عبد العزيز البكري (٣و٤) «معجم البلدان» لياقوت الحموي .
(٥) «معجم ما استعجم» للبكري . (٦) نور المقتبس .

لمحمود بن عمر الزمخشري : المنكدر : طريق اليمامة الى مكة . أنشد أبو عدنان :

لا تأخذي الآن طريق المنكدر (٧) .

ويلوح لي أن تسمية العرب لطريق اليمامة الى مكة وهو المعني بـ « المجاز بين اليمامة والحجاز » مأخوذة من الصفة الملازمة له ، وهي عمرانه بقوافل المسافرين فيه جيئة وذهابا .. فمعنى : انكدر القوم عليهم جاءوا ارسالا يتبع بعضهم بعضا ، وهذه الظاهرة مشاهدة في هذا الطريق المورود حتى اليوم .

تحديد المؤلف لليمامة

حدد المؤلف «اليمامة» تحديدا جامعا مانعا ، كما يقول المناطقة .. واستطرد الى وصف جبال الجزيرة المشهورة : كأجأ وسلمى وقطن ورضوى والعرقة وكبكب وشروري وجبل السراة ، وحدد جبل اليمامة تحديد خبير حفي ، ووصف مسالكه ودروبه وقراه وأوديته وبلدانه ومقاطعاته والعاصمة « الرياض » بما فيه الكفاية ، كما وصف الخرج – بسكون الراء – ووادي بريدة والحوطة والأفلاج وقاعدته ليلى .. الخ . وشرح مزايا اليمامة خصبا وكثرة مياه ومزارع . قال : « في الجاهلية استوطنها من القبائل العربية أكثرها عددا ، وأقواها شوكة وأكبرها مكانة ، كقبيلة تميم وحنيفة » .. وقال : « منها هوذة بن علي الحنفي أول معدى لبس التاج ، وخوطب بأبيت اللعن ، وكتب له النبي صلى الله عليه وسلم ، كما كتب لكسرى وقيصر » .

وقد ذكر المؤرخون أن مالك بن خالد بن صخر بن الشريد السلمي كان يسمى« مالكا ذا التاج » توجته بنو سليم ، وقتله في احدى المعارك القبلية عبد الله ابن جذل الطعان(٨) وكلاهما أي هوذه ومالك معدي الارومة ، فأيهما كان السابق – زمنا – الى التتويج؟! وذكر المؤلف شعب « وبـرة » .. و « وبـرة » ايضا علم يطلق على الحرة الغربية للمدينة المنورة .. أما الحرة الشرقية فاسمها « واقم » . والوبرة – مسكنة الباء – في « شعب وبرة » بنجد ، وفي « حرة الوبرة » بالمدينة ، ومعنى « الوبرة » لغة : دويبة غبراء على قدر السِّنَّور ، حسنة العينين شديدة الحياء ، تكون بالغور . ووبرة أيضا : اسم قرية ذات نخيل ، من أعراض المدينة . ولعل حرة الوبرة منسوبة الى هذه القرية . أما « واقم » فمعناه : المحزون . ووقمه الأمر : رده عن حاجته .. وواقم : أطم من آطام المدينة ، سمي بذلك لحصانته ، ولأنه يرد الأعداء عن أهله ويصدهم ، وحرة واقم الى جانبه ، فهي منسوبة اليه ، على غرار تسمية « حرة الوبرة » باسم القرية التي تقع فيها أو بجانبها ، وذلك على عادة العرب في تسمية أماكنهم باضافتها الى علم يقرب منها أو فيها ..

وذكر « عريق البلدان » وقال : ان « كثيب الرغام » لضبة ولعمر بن تميم . وكان بودنا أن يذكر لنا لمن هو الآن ، وصلا للحاضر بالماضي العريق ، لا سيما وانه قد صنع ذلك في عدة أماكن من الكتاب .

مرأة ومرأت

ذكر المؤلف « مرأة » وغلّط من يكتبها بالتاء المفتوحة . ويبدو لي أن كل ما يكتب بالتاء المربوطة يصح أن يكتب بالتاء المفتوحة .. وأصل ذلك ومستنده اعادة كتابتها باحدى الحالتين الى حالة نطق العرب بها في الوقف عليها .. فمن العرب من يقف عليها بالهاء ، ومنهم من يقف عليها بالتاء ، ففي مراعاتنا لمن يقف عليها منهم بالهاء نكتبها بالتاء المربوطة ، وفي حالة ملاحظتنا لمن يقف عليها منهم بالتاء ، نكتبها ان شئنا بالتاء المفتوحة ، ولا ضير علينا من ذلك .. وبطبيعة الحال تنجرّ هذه القاعدة على « مرأة » وفاطمة وعائشة وطلحة الخ ..

استطرادات المؤلف وقصصه وشواهده

في الكتاب كثير من الاستطرادات الجميلة ، المفيدة ، وهو مفعم بالقصص والشواهد الشعرية الفصحى والعامية ، وهذه يسميها المؤلف «الشعبية» ولا أوافقه على هذه التسمية لأن «الشعبية» منسوبة الى الشعب ، فاذا كان المقصود بالشعبية هنا ، الأشعار المنسوبة الى الشعب العربي القديم ، فالأولى ان تطلق التسمية على أشعار الشعب العربي الفصيحة القديمة والحديثة ، وان كان المقصود من «الشعب» هنا الشعب العربي الحديث ، فأشعار الشعب العربي المجمع على انها شعر شعبي عربي للجميع هو تلك الأشعار الفصحى أيضا .. واذن فالأجدر اذا أردنا أن نعبر عن هذا الشعر الملحون ، أن نسميه « الشعر العامي » ، لأنه شعر عامة الناس ، وفي هذا اشارة الى أنه ملحون وليس بفصيح ، لأن عامة الناس اليوم وقبل اليوم ليست الفصاحة مضمونة فيهم .

ووجود ثروة من القصص في الكتاب : قصص حوادث الأمكنة المتحدث عنها في الكتاب ، ووجود استشهادات شعرية عليها فيه ، هما من الشروط التي التزم بها المؤلف في مقدمة كتابه ..

تحديد الأمكنة

يبدو لي من دراستي لكتب الرحلات العربية والاسلامية ، أن تحديد الأمكنة التي يجتازها الرحالة أو يصاليها سواء أكانت قريبة من خط سيره أم بعيدة عنه له أهميته ليستطيع القارىء متابعة الرحالة في خطواته عبر الصحاري القفار والأودية والجبال . وتحديد مسافات الرحلات اما أن يكون بالأميال والفراسخ وغيرها من المقاييس العلمية القديمة ، أو بالمقاييس العلمية الحديثة كالكيلومترات والأميال ، أو بالمقاييس العادية كساعات السير وأيامه ولياليه .. ومعلوم أن هذه المقاييس الأخيرة لا تعطينا قياسا دقيقا عن المسافات التي تحدد بها ، لأن السير ربما يكون مسرعا ، وربما يكون بطيئا .. ويؤثر في حالتيه على التحديد بساعاته أو أيامه أو لياليه . ومثال ذلك ما سنورده عن يوسف ياسين في « الرحلة السلطانية » واذا أردنا أن نستعرض الشواهد في هذه المسألة فاننا نجد مثلا ابن فضلان في رحلته الى روسية يستعمل القياس للمسافات التي اجتازتها بعثته أحيانا ، ويترك ذلك أحيانا . وكان مقياسه اذا قاس بالأيام والليالي يقول « ثم أوغلنا في بلاد الترك ، فسرنا فيها عشرة أيام .. فلما سرنا خمس عشرة ليلة وصلنا الى جبل عظيم » .

ونرى « ابن جبير » يحرص في رحلته على أن يحدد المسافات بالأميال . ونرى « ابن بطوطة » في رحلته يجمع بين التحديد والاهمال .. لا يلتزم في ذلك خطة معينة ، و « قياساته » كانت بالأيام ..

---

(٧) معجم البلدان . (٨) «جمهرة انساب العرب» لابن حزم .

و « رحلة الشتاء والصيف » التي قام بها « كبويت » لا تلتزم بقيود قيس الأمكنة التي يمر بها صاحب الرحلة . وأكثر حديثه عن الأماكن التي يجتازها جاء خلوا من أي قياس أو تحديد علمي .. وكصنيعه صنع الشريف شرف البركاتي في رحلته : « الرحلة اليمانية » .

وكانت رحلة محمد صادق بك ، أمير الحج المصري في سنة ١٢٧٧هـ ، قد حدد فيها المسافات تحديدا علميا دقيقا بآلة حديثة ذكر انه أول من استعملها ، واسمها « هكتومتر » .

ثم جاء ابراهيم رفعت باشا فكتب سفر رحلاته الى الحج : « مرآة الحرمين » وكانت رحلاته برا على الجمال وبحرا على البواخر . وقد اهتم بتسجيل قياسات المسافات ، فكان كتابه زينة كتب الرحلات العربية لذلك ، ولاحتوائه على كثير من صور المعالم والخرائط والأشخاص والمراسيم والأوامر والرسائل المتعلقة بالرحلات ، يضاف الى ذلك الفقه والسجلات والتاريخ والوصف الجغرافي .

وقام الرحالة أحمد حسنين باشا بتدوين رحلته الكبرى في « صحراء ليبيا » وقد استكشف فيها جملة استكشافات اعترف له بفضلها كبار العلماء في الشرق والغرب ، وقد التزم فيما أخذ المقاييس بالأجهزة العلمية الدقيقة للمسافات .

وجاء الأستاذ خير الدين الزركلي فدون رحلته : « ما رأيت وما سمعت » فقاس المسافات بالساعات وغيرها .

وجاء الدكتور عبد الوهاب عزام بكتابه : «رحلات» فأخذ المسافات «بالكيلومترات» . أما كتاب « الارتسامات اللطاف » للأمير شكيب أرسلان فهو ارتسامات وان كانت في رحلة ، وقد طابق اسمها مسماها .

سقنا الحديث عن خطط الرحلات العربية والاسلامية فيما يتعلق بتحديد المسافات لنصل الى تبيان مهمة تحديد المسافات .. فاذا نظرنا الى كتاب « المجاز بين اليمامة والحجاز » من هذه الزاوية وهو من الرحلات الكبيرة المهمة نجده يماثل بعض كتب أولئك الرحالين من ناحية عدم التحديد بالمقاييس العلمية أو العادية .

على ان الأستاذ عبد الله بن خميس قد حل لنا ، من جهات أخرى عديدة - والحق يقال - هذا اللغز الغامض : لغز أماكن البادية في قلب الجزيرة في كثير من الأحيان ، وذلك بمفتاح كتابه المهم الجليل . ويمكننا بحق أن نعتبر كتابه « مفتاحا جيدا » لدراسات أوسع وأعمق وأدق لهذه الأماكن التي ظلت مغلقة حتى في الكتب التي بحثت عنها .

الرحلة الملكية

وبينما كنت سابحا في الكتاب تذكرت كتاب « الرحلة الملكية » التي قام بها الملك عبد العزيز رحمه الله ابان تأسيسه لهذه المملكة ، وقد دون تفاصيلها الشيخ يوسف ياسين رحمه الله - أولا في مقالات نشرها تباعا في جريدة أم القرى سنة ١٣٤٣هـ ثم قامت أخيرا وزارة المعارف السعودية بجمعهـا وطبعها . وقد رجعت الى هذا السفر فطالعته ، فوجدت فيه أسماء معالم طريق اليمامة الى الحجاز التي اجتازها ركب الملك المؤسس ، ومعه أمراء من أسرته ، وعلماء وراوية قدير هو عبد الله العجيري . وبمناسبة وصل الركب السلطاني الى وادي الحسبة ، وهو قرب رأس طويق - جبل اليمامة - عرف الكاتب طويقا ، فقال : « هو سلسلة جبال صخرية عالية».. وقال : « انه كثير الأعشاب طيب الهواء » . وكذلك فعل في « قباء » حينما مروا عليها و «مران» و «كشب» و «ركبة» و «العشيرة» . وكانت الميزة المهمة لكتاب الرحلة السلطانية ليوسف ياسين تدوينه لنا مقدار المسافات بين المياه أو المحطات في طريق اليمامة الى الحجاز ابتداء بالرياض وانتهاء بمكة المكرمة - بالساعات والدقائق ، فكان مجموع المسافة بين الرياض ومكة هو (١٦٥) ساعة و (١٠) دقائق .. ومعلوم انه قاس ذلك بسيرهم على أكوار الابل ، ولذلك نراه يعقب على التحديد المذكور بقوله : « وربما تكثر - الساعات - وتقل حسب درجة سرعة السير والمهل - على الابل .. ولكن سيرنا كان سريعا » .

وجدير بالذكر أن هذه الرحلة السلطانية ، للملك عبد العزيز رحمه الله تمت قبل استيلائه على جدة بنحو عشرة أشهر ، وكانت مكة المكرمة قد دخلت في حكمه قبل الرحلة ..

هذه الرحلة ذات علاقة قوية بموضوع كتاب « المجاز بين اليمامة والحجاز » ولم نر لها ذكرا في الكتاب .

ملاحظات موضوعية

يقول المؤلف : « وفي عام مولد النبي، صلى الله عليه وسلم ، كان يوم جبلة بعد رحرحان بعام ، وعبارته هذه منقولة عن « معجم ما استعجم » للبكري وقال : « وكان يوم جبلة من أعظم أيام العرب وأذكرها وأشدها . كان قبل الاسلام بسبع وخمسين سنة ، وقبل مولد النبي عليه السلام بسبع عشرة سنة وهمّش على هذه العبارة بقوله : « هذا خلاف ما أورده البكري انه بعده بسنة » ولم يذكر لنا المؤلف قائل هذا القول المخالف لما أورده البكري .. وبمراجعتنا لمعجم البلدان وجدنا فيه ذلك النص . ومما قاله البكري أن جبلة كان قبل الاسلام بأربعين سنة، وهو يوافق عام مولد النبي، صلى الله عليه وسلم . لقد أورد المؤلف هذه الأقوال المتضاربة ولم ير ترجيح أي منها على الآخر .. وله الحق ، فذلك تاريخ لم يدون حين حدوثه .

وذكر « الخوار » وقال : « انه أربعة مواضع في بلاد العرب منهـا : الخوار الذي قرب مكـة ، ونقل عن ياقوت قوله فيـه : والرابع انه قريـة بوادي ساية من نواحـي مكة قريبـة من البردة ، وفيهـا عين جارية ونخل » .

والذي في « المعجم » ان اسم « برزة » قرب الخوار، بالزاي المعجمة ، وجاء هذا الاسم في كتاب «المجاز» بالدال المهملة . ويبدو أن الصحيح ما ورد في المعجم ، فقد ذكر قرية « برزة » هذه غيره من المؤرخين بالزاي وهي لا تزال قائمة مأهولة حتى اليوم . وربما كان (بردة) غلطا مطبعيا .. وورد في «المعجم» في الخوار قرب برزة : «مياه ونخيل» . وفي كتاب المجاز « فيها عين جارية ونخل » . هذا ، ويقول المؤلف : « أما الخوار الذي نحن بصدده والذي ذكره ابن بلهيد فهو بفتح الخاء وتشديد الواو المفتوحة ، بعدها ألف فراء كما ضبطه ياقوت في «المعجم» وهو هذا الذي نراه بعد أن ننكب

«البجادية» وهو الذي قرن «بأَجَلى» في بيت ابن الاعرابي التالي : (٩)

خرجن من الخوار وعدن فيه
وقد وازن من « أجلى » برعن

وهنا ملاحظات :

أولا – يبدو أن « الخوار » المفتوح الخاء والواو المشددة – ليس هو المذكور في البيت المعزو لابن الاعرابي : « خرجن من الخوار » الخ .. لأسباب منها : أن المؤلف نفسه ضم الخاء في « الخوار » بداخل البيت الشعري – بكسر الشين – المذكور آنفا ، وفتح الواو بدون شدة . وان تشديد هذه الواو يؤدي الى خلل في وزن البيت . ومنها أن الخوار الذي ضبطه ياقوت بفتح الخاء وتشديد الواو لم يأت له بأي تعريف ، ونص ما قاله عنه هو : « الخوار بتشديد الواو في شعر كثير » :

ونحن منعنا من تهامة كلها
جنوب « نقا الخَوَّار » فالدِّمثَ السهلا
بكل كميت مجفر الدف سابح
وكل مزاق وردة تعلك النكلا

وهذان البيتان اللذان أوردهما "ياقوت" لكثير عن « الخوار » بفتح الخاء وتشديد الواو ، في قصيدة طويلة بديوانه المطبوع ومطلع القصيدة :

سقى دمنتين لم نجد لهما مثلا
بحقل لكم يا عز قد زانتا حقلا

و « حقل » هذا الذي يتحدث عنه كثير بشمال المملكة قرب أيلة بخليج العقبة . وكانت «حقل ساحلا لتيماء قديما ، وكان لعزة صاحبة كثير ، بستان بهذه القرية أشار اليه كثير في مطلع القصيدة ..(١٠) وكثير في قصيدته وفي بيتيه عن الخوار انما يتحدث عن مواضع في تهامة الشمالية بشمال المدينة المنورة ، وقد نص على أن نقا الخوار في تهامة لا في نجد .

هذا ، وهناك نص في « معجم ما استعجم » للبكري بأن « الخوار » في البيت الذي عزاه لابن الاعرابي تارة وللنمرة بن تولب تارة أخرى ، هو بعيد عن « أَجَلَى » .. وبذلك أوضح صاحب « معجم ما استعجم » مراده من قوله عن « الخوار » المخفف الواو : انه موضع يجاور مكة تلقاء أجلى ، وقد استشهد له بقول بشر بن أبي خازم :

حلفت برب الداميات نحورها
وما ضم أجماد الخوار ومذنب

وبالبيت الذي عزاه تارة لابن الاعرابي وتارة للنمر بن تولب :

خرجن من الخُوار وعدن فيه
وقد وازنَّ من " أَجَلى " برعن

وهذا « الخوار » مخفف الواو ، حسب اقتضاء الوزن في البيتين معا .

وفي بحث المؤلف في المويه قال : « وقد ظن بعض الباحثين انه المويه الحقيقي الذي تحدثنا عنه آنفا ، فخلع عليه صفات ذلك ، ولما جئت لأصحح ما وقع فيه أصر على رأيه فأعرضت وتركت الحكم للعارفين والتاريخ » .

والأمر حيال موضوع المويه ما زلت أعتقد انه مبني على سوء تفاهم بين « أحد الباحثين » الذي عناه المؤلف وبين المؤلف .. فأحد الباحثين لم يكتب ولم يظن أن المويه الجديد هو القديم .

ولا تعرض لهذا الأمر في عدد « رحلة الرياض » من مجلة المنهل ، كان يصف مشاهداته في طريق الرياض المسفلت من الطائف ، وحينما وصل « محطة المويه » على الاسفلت وصفها كمحطة قائمة يمر بها المسافرون حاليا على خط الاسفلت ، فحسب .. ولما ورد اسم « المويه » مجردا بمناسبة وصفه لمشاهداته في « محطة المويه » همش على صيغة «المويه» المجردة بما ورد عنها غير قاصد انه « محطة المويه » الحالية التي مر بها ، كما ظن ناقده مؤلف كتاب المجاز وبنى عليه نقده ، وانما هذا مجرد بحث عن اسم مكان ورد في الكتب قدمه « أحد الباحثين » في حقول الهوامش بمناسبة ذكره المجرد .. وآية هذا الواقع عنوان الفصل في « رحلة للرياض » الذي هو : « في محطة المويه » وآيته من جهة أخرى بينة في هامش صيغة « المويه » المنفردة عن « المحطة » أورد « الباحث » ما ذكره بعض المؤلفين عن « المويه » مجردا من صيغة « المحطة » مما يدل على أن البحث العلمي لا يختص بمحطة المويه وحدها وانما هو للموية ومحطته معا ..

وقد ذكر المؤلف ان طريق الحاج من البصرة الى مكة يسمى « المنقى » ، وقد مر بنا انه يسمى لدى العرب ايضا باسم « فلج » .

وذكر « عكاظ » وحقق كل ما دار فيها من بحوث أو جلها بالدقة ، اذ لم يتعرض لأقوال من يرى انها بأحد السيلين أو بقربهما . وأخيرا وافانا بتحديده الخاص لها المبني على دراساته الخاصة فقال : « ان مسافة عكاظ أربعة كيلومترات من جنوب الى شمال ، وكيلومترين من غرب الى شرق » .

وبالنظر لما هو معروف من أن سوق عكاظ هذه كانت « معرضا عالميا » يفد اليها قبائل العرب من شتى بلادهم ببضائعهم ومفاخرهم .. فلا بد أن لكل قبيلة مكانا معروفا بها أو بحسب نزولها ، وما أكثر قبائل العرب وما أشد تنافرهم ، مما يقتضي التنائي بين منازلهم ، تحرزا وتحرسا ، كما أن عكاظ كان يتوافد عليها أمم الدنيا من فرس وروم ومن الهند ، ومن العراق ، والاتراك وغيرهم ، ما يستدعي أن تكون مساحة هذا المعرض العام الأممي أفيح .. أمم العجم لا بد لكل من وافديها الى عكاظ من مساحة واسعة مستقلة عن المساحات الأخرى وعن مساحات قبائل العرب المتضاربة المتناحرة .. فيبدو أنه من المعقول والمرجح أن تكون المساحة أوسع مما حدده الأستاذ المؤلف ، وهذا مع تقديرنا للمجهود العلمي الكبير الذي بذله بحثا واستطلاعا حتى توصل الى تحديد معين لمساحة سوق عكاظ .

وعرض المؤلف لمبدأ اقامة سوق عكاظ ، وأخذ في ذلك برأي الأستاذ سعيد الأفغاني في كتابه : « أسواق العرب » بأنها بدأت في القرن الخامس الميلادي .

وقد صدر بعد كتاب « أسواق العرب » كتابنا : « بين التاريخ والآثار » الذي كان حصيلة العيان والمشاهدات والدراسة ... وقديما قيل : وما راء كمن سمع .. وقد غربلت ما قيل في مبدأ اقامة سوق عكاظ وأضفت اليه شواهد ما أظن انها طرقت من قبل ، وكانت نتيجة كل ما ذكر التوصل الى أن مبدأ اقامة سوق عكاظ كان حول سنة ٥١١م لا في القرن الخامس ، كما ارتأى مرجع كتاب المجاز ، كما ان نهاية سوق عكاظ كانت ١٢٩هـ الموافقة ٧٤٦م أي أقل من المدة التي قررها سعيد الأفغاني لانتهائها .

وذكر المؤلف بعض آثار الطائف . ولم يذكر الكتابات العربية القديمة التي ذكرها الأمير شكيب

(٩) هذا البيت مثبت في قصيدة للنمر بن تولب بديوانه المطبوع . (١٠) « مدائن صالح » للأستاذ محمد عبد الحميد مرداد .

ارسلان في جبل السكارى(١١) . كما انه لم يذكر الآثار بجبل الردف ، وهي كتابات منقورة على صخوره ، ومنها كتابة لحفيد ابن أبي محجن (الثقفي) الصحابي البطل الشاعر المعروف رضي الله عنه .. وقد ذكرها الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه : « ما رأيت وما سمعت » وقال : انها من خطوط أواخر القرن الهجري الأول ، أو أوائل القرن الهجري الثاني . ولم يشر المؤلف أيضا الى ذلك الأثر المنقور على صخرة كبيرة على يمين القادم الى الطائف من السيل الكبير ، وطالما وقفت عندها أتأمل نقوشها ، أهي ثمودية ، أو سبئية ، وأتأمل خطوط صورتها التي ربما تكون صورة بطل عربي قديم دارع ، وربما تميط لنا الأبحاث العلمية المقبلة عن راقمه أو صاحبه أو هما معا ، وقد أشار اليه الأستاذ خير الدين الزركلي في « ما رأيت وما سمعت » ..

ولم يذكر المؤلف كذلك بين آثار الطائف « قلعة الطائف » التي يقول عنها صاحب كتاب « ما رأيت وما سمعت » : انها بنيت منذ نيف ومائة عام ، وذلك في طبعته الأولى سنة ١٣٤٢هـ . وجعل المؤلف « السداد » جبلا ، وجعل « الردف » جبلا آخر . غير أن كتاب « ما رأيت وما سمعت » جعلهما جبلا واحدا .. قال : « وهناك جبل آخر يبعد عن الطائف مسيرة ساعة الى جهة الغرب الجنوبي منه يسمونه « الردف » ويعللون هذه التسمية بترادف حجارته وصخوره ، بعضا فوق بعض . والكثيرون يسمونه « السداد » باسم القرية التي هو فيها ، وسميت بذلك ، لأنه كان فيها ثلاثة سدود ، لمنع السيول .. الخ » .

ولم يحدد المؤلف المسافة بين جبال الطائف ، ولم يذكر من بينها الجبل الذي تقوم عليه مدينة الطائف : جبل غزوان . وقد ذكره « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، وقال عنه : « غزوان – بالفتح ثم السكون وآخره نون – فعلان ، من الغزو ، وهو القصد .. وهو الجبل الذي على ظهره تقوم مدينة الطائف » . ويقول عن « مزدلفة » : ولا يباح الانصراف منها – للحجاج – الا قبيل طلوع الشمس الا للسقاة والرعاة ، وأهل الأعذار يباح لهم بعد منتصف الليل . وكان الأجدر أن يفصل ، فيقول : ان ما أورده هو مذهب الامام أحمد بن حنبل .. مع أن الامام ابن تيمية في « فتاواه » قال : « والسنة أن يبيت بمزدلفة الى مطلع الفجر » .

ومذهب الامام مالك بن أنس أن يمكث الحاج بمزدلفة ليلا ، بقدر حط الرحال ، وذلك في سيره الى منى من عرفات ، وهذا واجب ، اللهم الا اذا كان له عذر فلا يجب النزول بها . (١٢) وفي « المدونة الكبرى » ما نصه : « قلت : أرأيت من ترك الوقوف بالمزدلفة غداة النحر أيكون عليه في قول مالك شيء أم لا ؟ « قال » : قال مالك : من مر بالمزدلفة غداة النحر مارا ، ولم ينزل بها ، فعليه الدم . ومن نزل بها ثم دفع منها بعد ما نزل بها ، وان كان دفعه منها في وسط الليل أو أوله أو آخره وترك الوقوف مع الامام فقد أجزأه ولا دم عليه » .

وعند الحنفية : يسن المبيت بمزدلفة ليلة النحر بعد الخروج من عرفة .

وللشافعي قولان ، أقواهما : وجوب المبيت بمزدلفة الى الاسفار ، والا فعليه الدم . (١٣) .

وذكر أن « طريق ضب » يسمى الآن عند أهل مكة « المظلمة » . وبودي أن يذكر مصادر ذلك .

ملاحظات لغوية

لاحظنا أن المؤلف استعمل هذه الصيغة مرتين : « سوف لا يرى الهلال » . « فسوف لا نذكر » .. ويبدو أن الصحيح استعمال « لن » التي تدل على النفي في المستقبل القريب والبعيد ، فنقول : « لن يرى الهلال » و « لن نذكر » .. وقال : « ولعمري انه في كلا العينين » .. وصيغة « كلا » للمذكرين . لأن العين مؤنث فالصحيح أن يقال : « في كلتا العينين » ، لأن « كلتا » هي للمؤنث : « كلتا الجنتين آتت أكلها » . واستعمل صيغة : « نبي الاسلام » مرتين ، بينما الصحيح شرعا أن يقال : « نبي الله » لأن الاسلام نسخ كل الديانات فاذا قلنا « نبي الاسلام » كان اعترافا ضمنيا بغير الاسلام . وفي الكتاب تطبيعات لم ترد في جدول « الخطأ والصواب » مثل : « وما جمعت حراء » و « ذات الحنضل » و « قيقعان » في « قعيقعان » و « التنغيم » في « التنعيم » .

اجادات المؤلف

واجادات المؤلف في كتابه أكثر من أن تحصر ، ومن أهمها حرصه العلمي البالغ على التعريف بموقع سوق عكاظ . وبالمناسبة فقد قرأنا في كتاب «المجاز» هذا تحقيقا مفيدا للأستاذ حمد الجاسر ، في التعريف بالقبائل الموجودة في عكاظ وحوله ، ووصل حاضرها بماضيها .. مثل قبيلة « الجثمة » – الجشمة – التي تنتمي الى « جشم بن بكر بن معاوية بن هوازن أخوة بني نصر من سكان هذا المكان الذي هم به الى الآن .. ومثل « عدوان » التي منها الشاعر ذو الاصبع العدواني ، ومثل ثقيف وقريش والعصمة .

ومن حسنات الكتاب عنايته بضبط أسماء الأمكنة قديما وحديثا وتلك « المقطوعات الفنية الرائعة يطلقها الأستاذ بمناسبة عرضه لبعض المواقع ذات التاريخ في نجد . وللمؤلف في بعض المواقف ، لفتات طيبات ، مثلا حينما ذكر « قرية غسل » قال عنها : « وهذه القرية هي قرية المؤلف وأحب أن أقول كما قال الأول :

بلاد بهـا نيطت علـيَّ تمائمي
وأول أرض مس جلـدي ترابُها

وقد جلّى لنا جبل « النير » تجلية عارف خبير ، وكذلك صنع في جبل « الكود » .

ومن المميزات أيضا أن المؤلف كثيرا ما سلك سبيل العلماء .. اذا اشتبهت عليه معالم أوصاف مكان ما ولم يتأكد من أحدها فانه يذكرها ويختتم البحث بقوله « والله أعلم » ..

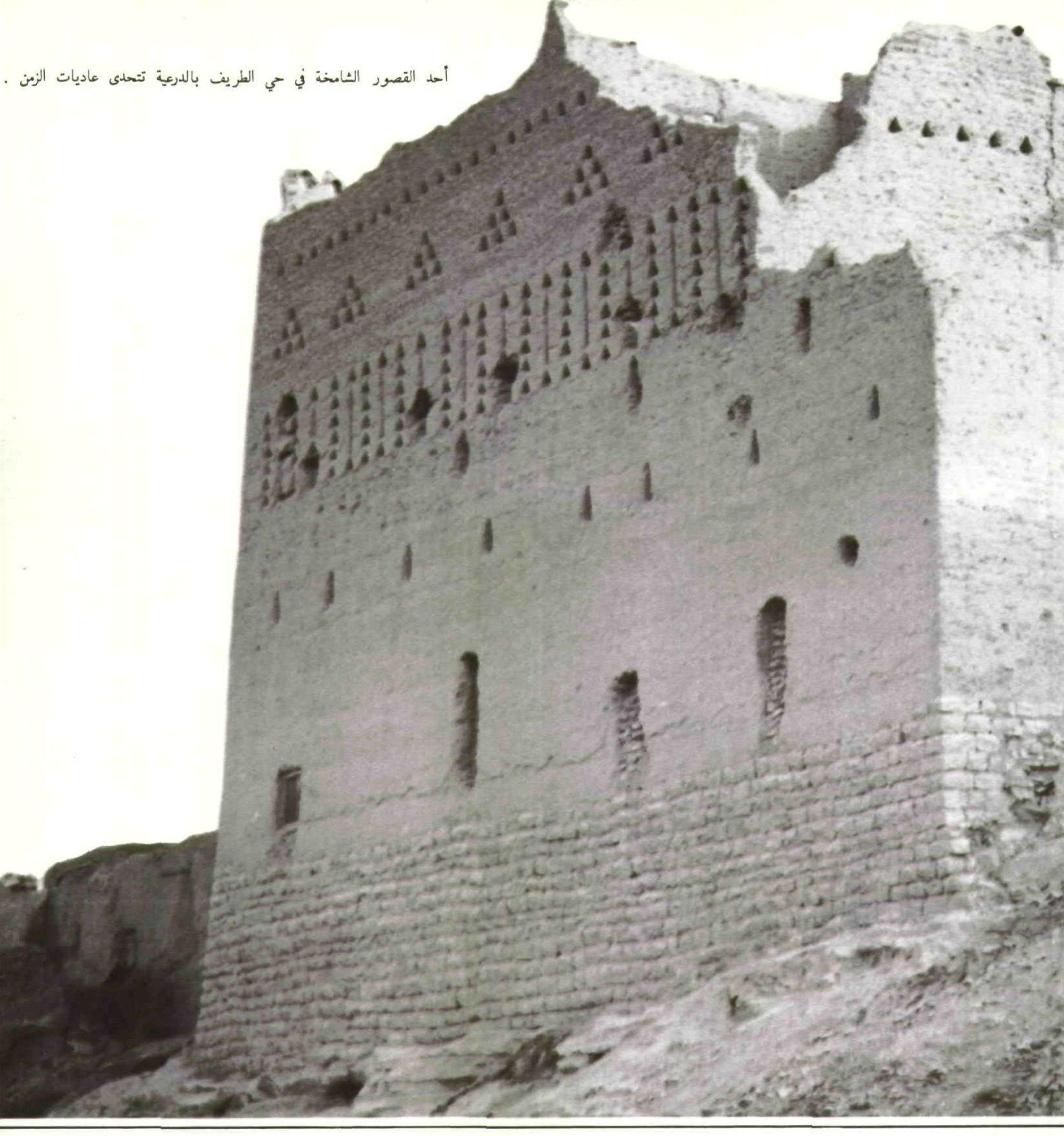
وميز « الخرج » بسكون الراء – الاقليم المعروف عن « الخرج » بفتح الراء . وكثيرا ما أعاد الاسم المحرف في العامية مثل «ذهلان» و«الحذني» الى أصله الصحيح : «ثهلان» و «الحذنة» . وبلدة الدوادمي ، قتلها بحثا وتحقيقا وتحليلا بما يندر أو لا يوجد له مثيل في غيره من الكتب فيما وصل اليه علمي .

وقد حلي الكتاب بمصورات جغرافية وبفهارس عامـة . ونحن نهنيء المؤلف على مجهوداته القيمة ، ونبدي له بالمناسبة انه لا يحلل وينقد نقدا علميا سوى الكتاب الدسم القيم الذي يستحق القراءة والاقتناء .. ونقول له في ختام كلمتنا ، باخلاص وتجرد : أحسنت فهل من مزيد ؟! ■

(١١) « الارتسامات اللطاف » . (١٢) الفقه على المذاهب الأربعة . (١٣) « القرى لقاصد أم القرى » للطبري الشافعي المكي .



الدرعية قلعة الأمجاد



أحد القصور الشامخة في حي الطريف بالدرعية تتحدى عاديات الزمن .

عَلَى بُعْدِ عِشْرِينَ كِيلُو مِتْرًا إِلَى الشَّمَالِ الغَرْبِيِّ مِنْ حَيِّ البَطْحَاءِ فِي قَلْبِ الرِّيَاضِ ، عَاصِمَةِ المَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ ، تَقَعُ مَدِينَةٌ سَجَّلَ لَهَا التَّارِيخُ صَفَحَاتٍ رَائِعَةً ، فَمِنْهَا جَلْجَلَتْ صَيْحَةُ الحَقِّ ، وَفِي أَرْضِهَا نَمَتْ وَتَرَعْرَعَتْ بُذُورُ تَوْحِيدِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ نَهْبًا لِلْمِحَنِ وَالأَهْوَاءِ ، وَمَسْرَحًا لِعَوَاصِفِ الجَهْلِ وَالضَّلَالِ ، إِلَى أَنْ قَيَّضَ اللهُ رِجَالًا انْطَلَقُوا مِنْ هَذِهِ المَدِينَةِ لِيُبَدِّدُوا ظَلَامَ الجَهْلِ ، وَيُعِيدُوا إِلَى الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ الحَنِيفِ تَعَالِيمَهُ الصَّحِيحَةَ . . تِلْكَ هِيَ مَدِينَةُ الدِّرْعِيَّةِ .

ما ان هبطت بنا الطائرة في مطار الرياض حتى استقبلتنا نسائم صبا نجد الباردة المنعشة ، المضمخة بشذى الخزامى والأقحوان ، تبعث فينا النشاط ، فالوقت ربيع مشرق . ولما أعربنا عن رغبتنا في زيارة مدينة الدرعية قال لنا سائق السيارة : اذن أنتم اما أن تكونوا طلاب متعة أو عشاق آثار . ولما استزدناه ايضاحا ، قال : الدرعية بلد يجد فيه الزائر بساتين النخيل الوارفة الظلال ، والهواء العليل ، والماء النمير ، وما لذ وطاب من الثمار ، وفيها يجد الزائر من ناحية أخرى الاطلال التي تقف شاهدا على ما بلغته هذه المدينة من رفعة وازدهار . عندها قلنا له : نحن طلاب الأمرين معا .

وسلك بنا السائق « شارع الدرعية » ذا الاتجاهين ، وهو من أجمل شوارع الرياض ، ويفضي الى طريق معبد يخترق هضبة نجد الشمالية مارا بمدن وقرى عديدة منها ، صَلْبوخ وبِنْبان والمجْمَعَة والزُلْفي الى أن ينتهي بمدينة بريدة . وما هي الا دقائق معدودة حتى لمحنا لوحة على يمين الطريق كتب عليها « الى الدرعية » ، فانحرفت بنا السيارة الى اليسار على طريق فرعي وأخذت تنحدر تدريجيا حتى وجدنا أنفسنا في قلب الدرعية في أقل من خمس دقائق .

واسطة العقد في وادي حنيفة

يعتبر « وادي حنيفة » الذي يحتضن الدرعية بين ضفتيه من أهم أودية جزيرة العرب وأخصبها . وقد كان في الماضي من أكثر الأودية سكانا وعمرانا ، تنتشر فيه القرى والمزارع كالعقد المنظوم ، وتكاد تكون الدرعية التي نحن بصددها واسطة هذا العقد . وكان هذا الوادي يعرف قديما بوادي « العِرْض » أو عِرْض بني حنيفة ، شأن كل واد فيه قرى ومياه يطلق العرب عليه مثل هذا الاسم . وقد استوطنت هذا الوادي قبيلة حنيفة ، وهي من أقوى القبائل العربية شوكة وأبعدها صيتا وأكثرها عددا ، اتخذت من جبل العارض « طُوَيْق » حصنا منيعا يقيها غارات القبائل الأخرى . فهذا شاعرهم موسى بن جابر الحنفي يدلل على ما بلغه قومه من شجاعة وقوة ومحافظة على الديار ، فيقول :

وجدنا أبانا كان حَــلَّ ببلدة ... سُوى بين قَيْسٍ قيسِ عَيْلان والفِزْر
فما نأت عنـــا العشيرة كلها ... أقمنا وحالفنا السيوفَ على الدهر
فما اسْلَمَتْنا بعدُ في يوم وقفــةٍ ... ولا نحن أغمدنا السيوف على وِتْر

تتدفق مياه وادي حنيفة من مرتفعات جبال « الخُمْرة » في سلسلة جبال طويق ، وينحدر مجراه نحو الجهة الجنوبية الشرقية الى أن يفيض في روضة السهباء القريبة من « حرض » في أسفل منطقة الخرج حيث يقوم مشروع الفيصل النموذجي لتوطين البادية . ويقال ان هذا الوادي كان يصب قديما في الخليج العربي الا أن الجفاف ورمال الدهناء المتحركة حالت مع الزمن دون ذلك . وعندما تهطل الأمطار ، تجتاحه سيول عارمة يصل ارتفاعها في بعض السنين الى عشرة أمتار ، فتقتلع الأشجار وتقوض المنازل وتتلف المزروعات ، ولهذا الوادي الممرع روافد عديدة تغذيه بالمياه وتلقي فيه ما تجرفه في طريقها من طمي . ولذا كان من أخصب البقاع وأعمرها في قلب الجزيرة العربية . فهذا الأعشى ميمون بن قيس بن جندل من بلدة منفوحة باحدى قرى الوادي يقول :

ألم تر أن العِرْض أصبح بطنـه ... نخيلا وزرعا نابتا ، وفُصافِصا
وذا شُرُفاتٍ يقصِرُ الطيرُ دونــه ... ترى للحمام الورق فيه قرامصا (١)

وهذا يحيى بن طالب الحنفي ، شاعر آخر أنجبه هذا الوادي ، شاءت الظروف أن تبعده عن الرياض الغناء وملاعب الصبا ، فيحن اليها حنين المدنف الى هواه ، فيقول :

يهيج علي الشوق من كان مصعدا ... ويرتاح قلبي ان تهب جنوب
فيا رب سلِّ الهم عني فانني ... مع الهم محزون الفؤاد غريب
ولست أرى عيشا يطيب مع النوى ... ولكنه بالعِرْض كان يطيـــب

واذا كان وادي العِرْض قد طبقت شهرته الآفاق فيما مضى ، وتغنى به فحول الشعراء أمثال الأعشى ، وذو الرمّة ، والفرزدق وغيرهم ، نجده اليوم بفضل المشاريع الحيوية من اقامة سدود الى حفر آبار عميقة يعود أشد مما كان عليه حركة وعمرانا وازدهارا . وهي مظاهر من التقدم السريع الذي يجتاح الوادي من أعلاه الى أسفله ، تنعكس في آثار ابن الدرعية الشاعر المبدع والباحث المدقق الشيخ عبدالله بن خميس .

تسميتها وظهورها

لا شك في أن الطبيعة قد أغدقت على موقع الدرعية بسخاء ، فمن واد فسيح تنتشر على شفيريه المرابع الخضر والمزارع اليانعة تتخللها ربوات صخرية تطل على الوادي ببساتينه الممرعة وقراه المتصلة ومياهه الموسمية المتدفقة ، الى هضاب مستوية تحف بالوادي لا تفتأ أن تلبس حلة سندسية اذا ما جادها الغيث فتأخذ زخرفها من أزهار الاقحوان والشيح والقيصوم ، وفيها تسرح الانعام وتمرح . فلا غرو اذن أن تجتذب هذه البقعة الخصبة الكثيرين يعمرونها وينعمون بخيراتها ، سيما وان ربوعها غنية بالماء والخضراء ، ويصور الشاعر عبد الله بن خميس ذاك البهاء أجمل تصوير عندما يقول :

سقتها الغوادي كم بها من مرابع ... يعطر أنفاس النعامى عبيرهــا
من الشيح والقيصوم والبان نشرها ... وما حاكه ودق السماء غميرهــا
اذا داعبتها السحب أو جسها الصبا ... تـأرج مغناها وراق غديرهــا
تعيث بحبات القلوب ظباؤهـــا ... وتفعل ما لا يفعل السحر حورها

ويصف أحد الشعراء الشعبيين القدامى موقع الدرعية الجميل بقوله :

يا ديرة بالعِرْض ماها قَــراح ... يا ما بها من مِدْمج الساق ميّاح
قِبْليها (خاشِر) وذيك اللّيَـــاح ... وشْرقيِّها بالوصف(رجْم ابن طِلْفاح) ٢

وعن نشوء الدرعية يحدثنا بعض من أرخوا لنجد وسجلوا احداثها في القرون الأربعة الأخيرة ، أمثال الشيخ محمد بن عمر الفاخري ، والشيخ ابراهيم بن صالح بن عيسى ، والشيخ عثمان بن بشر وغيرهم : « في عام ٨٥٠هـ قدم مانع بن ربيعة المريدي ، الجد الثاني عشر للمغفور له الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل ، من بلدته القديمة المعروفة بالدرعية ، من نواحي القطيف ، ومعه ولده ربيعة ، على « ابن درع » ، رئيس الدروع أهل وادي حنيفة وصاحب حَجْر والجِزْعة (الرياض الآن) ، وكانت بينهم صلة قرابة ، لأن كلا منهما ينتسب الى حنيفة ، فأعطاه « ابن درع » المُلَيْبِيد وغُصَيْبة ، القريتين الواقعتين في أعلى الدرعية ، فعمر ذلك المكان هو وذريته ، وأطلق عليه اسم « الدرعية » تيمنا باسم بلدته القديمة التي تقع على بعد نحو ثلاثين كيلومترا الى الجنوب الغربي من بقيق ، احدى مناطق العمل الرئيسية التابعة لشركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) ، وقد كان فيها شجيرات نخيل وبئر ماء يرتادها البدو القاطنون في تلك الناحية » .

---

(١) جمع قرموص وهو العش . (٢) يطلق عليه الآن « برج سعود » ويبعد نحو ٤ كيلومترات عن الدرعية من الناحية الشمالية الغربية .



تمتد بساتين النخيل اليانعة على طول عشرة كيلومترات بالدرعية .

أما الشاعر المؤرخ محمد الفهد العيسى فيرى أن بلدة الدرعية ترجع الى عهود أقدم من ذلك بكثير . فبعد التحليل المقارن والدراسة العميقة يرى أن بلدة الدرعية كان يطلق عليها قديما اسم « غَبْراء » التي عرفت فيما بعد باسم « العودة » ثم « عودة الدرعية » ثم « الدرعية » . و « الغبراء » تعرف اليوم باسم « غُبَيْراء » بالتصغير ، وهو شعب يرفد وادي حنيفة على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات الى الجنوب الغربي من قلب الدرعية الحديثة .

وجاء في « معجم البلدان » ، لياقوت الحموي : ان « الغبراء » هي الأرض الحمراء ، وهي أيضا من قرى اليمامة بها بنو الحارث ابن مسلمة بن عبيد ، ولم تدخل في صلح خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، أيام مسيلمة الكذاب .

وقال أبو محمد الأسود : الغبراء أرض لبني امرىء القيس من أرض اليمامة ، واستشهد بقول قيس بن يزيد السعدي :

ألا أبلغ بني الحران ان قد حويتم   بغبراء نهبا فيه صماء مؤيـد
ألم يك بالسكن الذي صفت ضلة   وفي الحي عنهم بالزعيقاء مقعد

ولا يستبعد أبدا أن تكون الدرعية من قرى وادي حنيفة الدارسة خلافا لاسمها المستحدث بدليل أن هذه المنطقة بالذات كانت في عصور ما قبل الاسلام تزهو بقصورها وحصونها ، كذات النُّسوع وَبتيل حَجْر (٣) ، وشَموس ، ومُعْتِق وفي بعض الروايات مُعْنِق ، في ذلك يقول الشاعر :

أبت شرفات من شموس ومعنق   لدى القصر منا أن تضام وتُضْهَدا

فذلكة تاريخية

لا بد لنا ونحن نستعرض تاريخ مدينة الدرعية والأحداث التي مرّت بها من أن نعود الى عهود سحيقة لنلم بالأقوام التي قطنت في هذه المنطقة والتي عرفت منذ القدم باسم « اليمامة » ، نسبة الى اليمامة بنت سهم ابن طسم « المشهورة » بزرقاء اليمامة » لزرقة عينيها ، وكانت على درجة كبيرة من حدة البصر حتى غدت مضرب المثل . ويشمل اقليم اليمامة في الوقت الحاضر العارض وسدير والمِحْمَل والشّعيب والوشم والخرج والحوطة والحريق والافلاج . وكان هذا الاقليم يضيق ويتسع تبعا لمقتضيات ادارية تفرضها الدول المتعاقبة .

تشير المصادر التاريخية الى أن قبيلتي طسم وجديس ، وهما من القبائل العربية البائدة ، عاشتا متجاورتين على ضفاف وادي العِرْض ووادي الوُتْر (٤) من اقليم اليمامة . وكانت السيادة لطسم التي اشتهر عنها انها أمة متحضرة فجرت العيون وشيدت الحصون والقصور . وتورد تلك المصادر ، على علاتها ، عن سبب فناء تينك القبيلتين شيئا هو أقرب الى الأساطير منه الى الحقائق التاريخية المجردة . فقد آل حكم طسم الى الملك « عمليق » الذي فرض سيطرته على جديس ثم طغى وتجبر ، وبلغ به التمادي في الظلم والطغيان أن أمر ألا تزف بكر من جديس الى بعلها حتى تدخل عليه . فكان ان أخذت الأسود بن غفار ، سيد جديس ، الحمية اثر زواج أخته غفيرة التي حملت الى « عمليق » ليلة عرسها فافترعها وخرجت من عنده شاقة ثوبها وهي ترتجز :

لا أحـد أذل مـن جديس   أهكذا يفعـل بالعـروس ؟

وتمضي تحرض قومها على عمليق فتقول :

أيجمل تمشي فـي الدماء فتاتكم   صبيحة زفت في العشاء الى بعل
فان أنتم لم تغضبوا بعد هـذه   فكونوا نساء لا تغبُّ من الكحل
فلو اننـا كنـا رجـالا وكنتم   نساء لكنا لا نقر عـلى الذل
فموتوا كرامـا أو أميتوا عدوكم   بحرب تُلَظّى كالضرام من الجزل

ولما كان أهل « جديس » أضعف من أهل طسم ، وأقل عددا ، عمد زعيمهم الى الحيلة بأن صنع طعاما دعا اليه « عمليق » وحاشيته بعد أن أمر رجاله بأن يدفنوا سيوفهم في الرمال مشهورة فلما التأم شمل « عمليق » حول الوليمة ، وثب « الأسود بن غفار » على عمليق فقتله ، ثم أعمل رجاله السيوف في رقاب رجال « طسم » حتى أبادوهم الا واحدا منهم

(٣) بتيل وجمعها بتل ، هن مربع من طين مثل الصومعة ، مستطيل في السماء ، منها ما يبلغ طوله خمسمائة ذراع . (٤) يعرف الآن باسم البطحاء ويخترق مدينة الرياض ويصب في وادي حنيفة .

فرّ الى « حسان بن أسعد أبي كرب » ، أحد ملوك اليمن ، واستنجد به ، فاغتنمها هذا فرصة سانحة لبسط نفوذه على هذا الاقليم . ورغم أن « زرقاء اليمامة » أنذرت قومها بقدوم تبّع اليمن الا أنهم كذبوها ، فصبّحهم حسان وقضى على طسم وجديس قضاء مبرما ، وخرب بلادهم وهدم قصورهم وحصونهم في بداية القرن الخامس الميلادي ، كما تثبت الكتابات الحميرية التي عثر عليها « عبد الله فيلبي » في جبل « ماسل الجمح » في العِرْض . وفي شرح وقائع هذه القصة يقول « أعشى قيس » من قصيدة طويلة مطلعها :

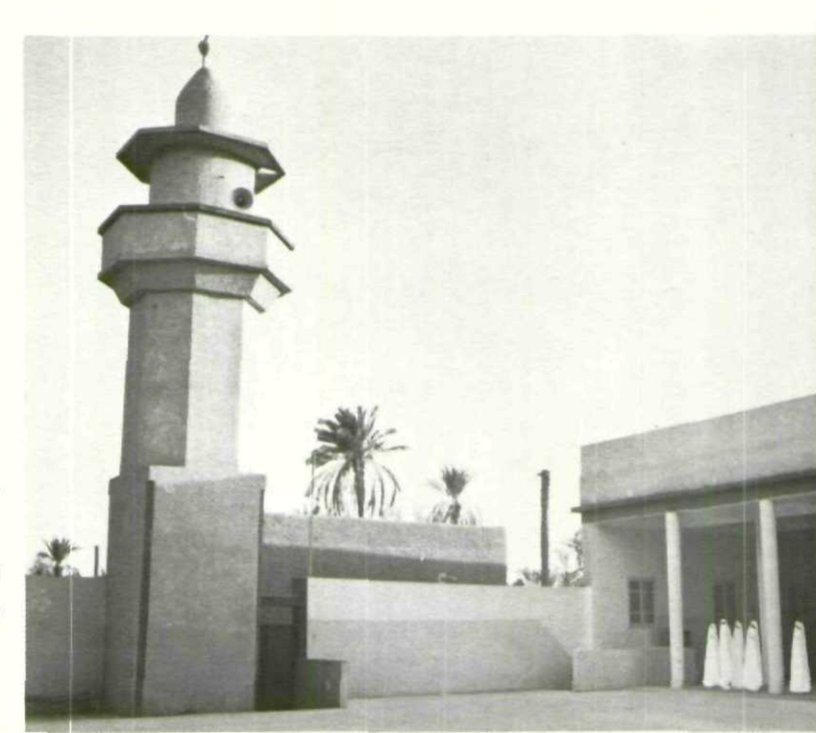
بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا ... واحتلت الغَمْر فالجُدَّين فالفَرَعا

الى أن يقول :

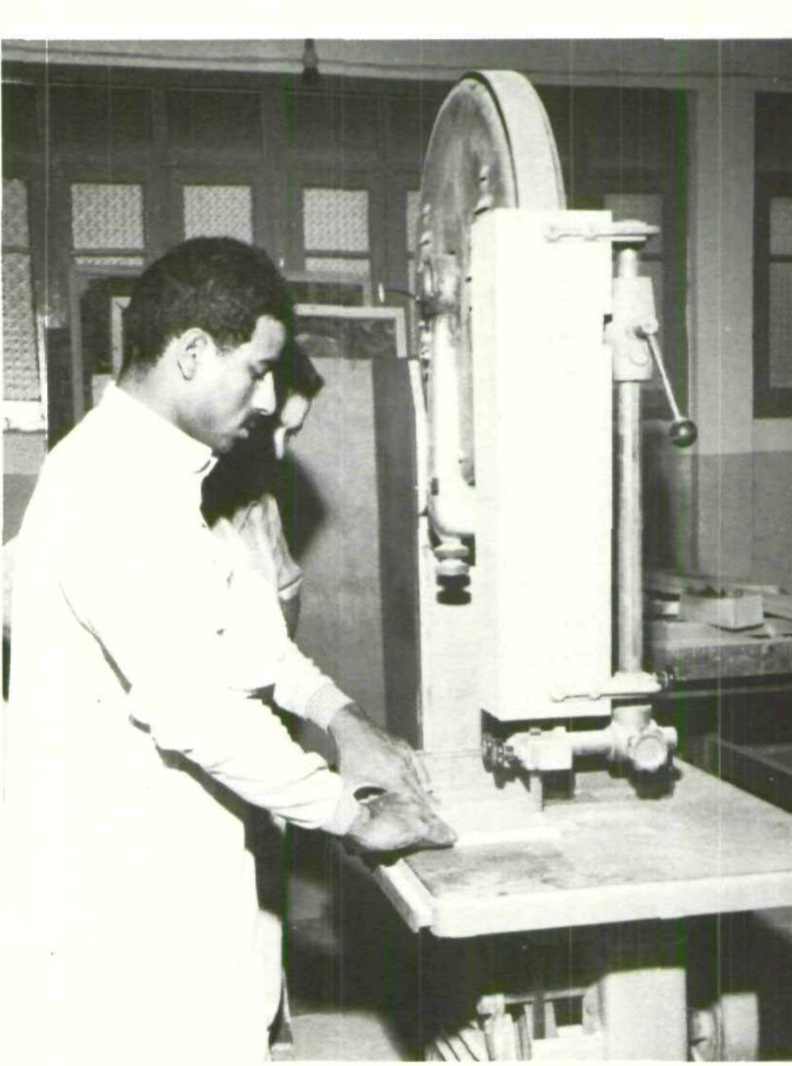
كوني كمثل الذي اذ غاب رافدها ... أهدت له من بعيد نظرة جَزَعا
وقلبت مقلة ليست بمقرفة ... انسان عين ومأقا لم يكن قَمِعا
قالت أرى رجلا في كفه كَتِف ... أو يخصف النعل لهفي أية صِنِعا
فكذبوها بما قالت فصبحهم ... ذو آل حسان يزجي الموت والشّرعا
فاستنزلوا أهل جوّ في مساكنهم ... وهدموا شاخص البنيان فاتضعا

وعند تفرق القبائل العدنانية على نحو ما هو معروف في كتب التاريخ خرجت قبيلة عنزة بن أسد بن ربيعة تتبع مواقع القطر يتقدمها عبد العزي ابن عمرو العنزي حتى بلغ اليمامة ، فرأى بلادا واسعة ومخيلا وقصورا فطاب له المكان . وفيما بعد جاء بنو عمومتهم من بني حنيفة بزعامة « عبيد بن ثعلبة بن يربوع الحنفي » وجاوروهم ولم يلبثوا أن تغلبوا عليهم وأصبحت لهم السيادة وسمي وادي العرض باسمهم حتى الآن . ويرجّح بعض المؤرخين أن بني حنيفة استوطنوا هذه المنطقة حوالي القرن الرابع الميلادي، كما نزلتها قبائل عربية أخرى كقبيلة تميم، وقشير ، وباهلة ، وعقيل ، الى أن ظهر الاسلام . وقد كانت زعامة اليمامة آنذاك لهوذة ابن علي السحيمي الحنفي ، وهو أول معدّي لبس التاج وخوطب بعبارة « أبيت اللعن » . فأرسل اليه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، سليطا بن عمرو العامري يدعوه الى الاسلام . فألف هوذة(٥) وفدا أرسله الى النبي فيهم مجّاعة بن مرارة والرجّال بن عنفوة يقول له ان جعل الأمر له من بعده أسلم وسار اليه ونصره والا قصد حربه ، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، لا ولا كرامة اللهم اكفنيه ، فمات بعد قليل .

ومن الذين يحمل لهم التاريخ ذكرى عطرة « ثمامة بن أثال »(٦) ، سيد بني حنيفة الذي تذكر الروايات عنه انه قصد مكة معتمرا وأهلها حينذاك مشركون ، فوافته خيل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأسرته، ثم جيء به الى رسول الله، صلى الله عليه وسلم ،وربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج اليه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقال له : « ما عندك يا ثمامة ؟ » قال « عندي خير يا محمد ، ان تقتلني تقتل ذا دم ، وان تنعم تنعم على شاكر . » ولما تكرر من ثمامة هذا الجواب أطلقه النبي ، فأعلن اسلامه وذهب الى مكة معتمرا ، فقال له قائل من قريش : أصبأت يا ثمامة ؟ قال : لا ، ولكن أسلمت مع محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ، صلى الله عليه وسلم . ولما عاد الى اليمامة منع أهلها أن يحملوا الى مكة شيئا ، فكتب أهل مكة الى رسول الله ، صلى الى عليه وسلم ، : انك تأمر بصلة الرحم ، وانك قد قطعت أرحامنا ، قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع » . فكتب اليه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن يعيد المياه الى مجاريها . واليمامة مشهورة



المسجد الجامع ، وقد بني على أنقاض مسجد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب .



من أهداف مركز التنمية الاجتماعية بالدرعية تدريب الشباب على حرف مختلفة كالنجارة والحدادة والتصوير وغير ذلك .

---

(٥) الجزء الأول من«تاريخ الكامل»لابن الأثير .

(٦) « البداية والنهاية في التاريخ»لابن كثير الجزء الخامس



يقوم الاخصائي الزراعي بعقد اجتماعات ارشادية الغرض منها توعية المزارعين وحثهم على اتباع أحدث الوسائل الزراعية .

بحنطتها وكانت تحمل الى الخلفاء ويطلق عليها بيضاء اليمامة . ويفخر أهل اليمامة بقولهم : « غلبنا أهل الأرض شرقها وغربها بخمس خصال : ليس في الدنيا أحسن ألوانا من نسائنا ، ولا أطيب طعاما من حنطتنا ، ولا أشد حلاوة من تمرنا ، ولا أطيب مضغة من لحمنا ، ولا أعذب من مائنا » .

ولما توفي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، انقاد بنو حنيفة لمسيلمة ابن حبيب الكذاب ، لأن الاسلام لم يتمكن من نفوسهم . وكان مسيلمة قد وفد على النبي،صلى الله عليه وسلم ، وادعى النبوة عقب عودته وقويت شوكته . والجدير بالذكر ان « ثمامة بن أثال » ثبت على اسلامه وخرج من اليمامة وانضم الى العلاء بن الحضرمي لقتال المرتدين من أهل البحرين . ولما بلغ أبا بكر ، رضي الله عنه ، ما آلت اليه الأمور في اليمامة سير لها جيشا بقيادة « عكرمة بن أبي جهل » فلم يحالفه الحظ ، وكان قد أرسل له أبو بكر مددا مع شرحبيل بن حسنة فلقي هذا ما لاقاه عكرمة . فما كان من أبي بكر الا أن أرسل خالداً بن الوليد الذي قدم الى اليمامة في السنة الحادية عشرة للهجرة بعد أن فرغ من القضاء على « طليحة الأسدي » في معركة « بزاخة » . ولما بلغ خالد بجيشه ثنية الأحيسي (٧) في أعلى الوادي ، خرج مسيلمة لبني حنيفة ونزل في عقرباء بجوار قرية الجبيلة على بعد ١٢ كيلومترا الى الشمال الغربي من الدرعية . وفي عقرباء وقعت معركة « حديقة الموت » ، وهي من أعنف المعارك ، وقد لجأ اليها مسيلمة فقتل فيها ، وسميت بهذا الاسم لكثرة من قتل فيها . وقد استشهد في وقعة « عقرباء » ألف ومئتا شهيد ، منهم زيد بن الخطاب ، أخو الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه . وفي ذلك قال ضرار بن الأزور :

ولو سئلت عنا جَنوب لأخبرت	**عشية سالت « عقرباء » ومَلْهم**
وسال بفرع الواد حتى ترقرقت	**حجارته فيها من القوم بالدم**
عشية لا تغني الرماح مكانها	**ولا النبل الا المشرفي المصمم**
فان تبتغي الكفار غير مليمة	**جنوب فاني تابع الدين مسلم**
أجاهد اذ كان الجهاد غنيمة	**ولله بالمرء المجاهد أعلم**

وتم أخيرا الصلح ، ورجع خالد بن الوليد من اليمامة بعد أن ولّى عليها « سمرة بن عمرو العنبري » من تميم . ثم قدم وفد من بني حنيفة الى الخليفة أبي بكر ، رضي الله عنه ، لتقديم الولاء والطاعة ، وبذلك انضوت اليمامة تحت لواء الاسلام تذود عنه بقوة وايمان وأبلى أبناؤها بلاء حسنا في الفتوحات الاسلامية فيما بعد .

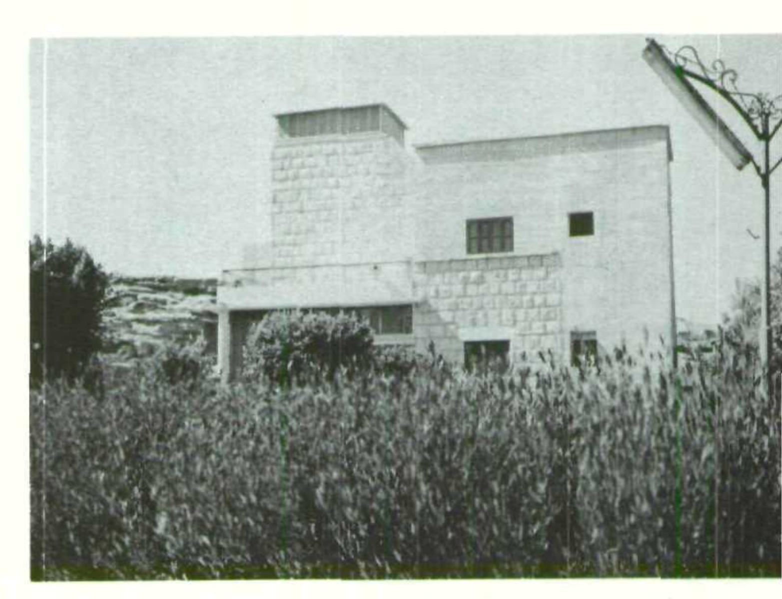
عاصمة ومنطلق دعوة

في حين كانت الجزيرة العربية تغط في سبات عميق وفي حالة يرثى لها من التدهور والانحطاط ، برزت الدرعية في حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري لتتبوأ مركزا مرموقا وكأنها على موعد مع التاريخ . ففي عام ١١٣٩هـ استقل الامام « محمد بن سعود بن مقرن بن مرخان » بولاية الدرعية (٨) ومعها غصيبة ، واتخذ منها عاصمة لملكها فازدهرت بالعمران ونشطت فيها الحركة التجارية . وقد نعمت بأسباب العزة والمجد عندما التجأ اليها المصلح الكبير والداعية المجدد الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» قادما من العُيَيْنة ، فاستقبله أميرها « محمد بن سعود » وعاهده على مناصرته ومؤازرته ونشر دعوته ، التي ترمي الى العودة الى الاسلام نقيا من البدع والترهات والضلالات . ومع أن الدعوة لاقت في بادىء الأمر مناوأة شديدة الا أنها لم تلبث أن انتشرت وامتد شعاعها خارج حدود الجزيرة العربية . والجدير بالذكر أن الدرعية أصبحت آنذاك منارة للعلم والدين عندما راح الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » ينظم حلقات الدرس في المسجد الجامع وفي منزله في حي البجيري ، فكثر تلاميذه ومريدوه من أبناء الدرعية والقرى المجاورة وحتى من المناطق الأخرى البعيدة ، وبذلك غدت الدرعية أول مركز ثقافي اسلامي ، لا في نجد وحدها بل في شبه جزيرة العرب . كما بلغت شأوا ملحوظا في طريق التقدم والازدهار ابان حكم أمراء آل سعود وعمها الخير والرفاه .

مثل أعلى في الصمود

ان النجاح الذي حققته الدرعية لم يحظ برضى الدول المجاورة بل قابلته بعين السخط والغضب ، وخاصة الدولة العثمانية التي رأت في الدرعية درعا يحول دون تحقيق مطامعها وبسط نفوذها ، فأخذت تسعى

(٧) تعرف الآن باسم « الحَيْسِيَّة » . (٨) « عنوان المجد في تاريخ نجد » لابن بشر .



منزل حديث مبني بالحجارة المقصبة المقطوعة من جبال الدرعية .

جاهدة لوقفها عند حدها ، وأمرت ولاتها في كل من البصرة وبغداد ومكة ومصر وسورية لمحاربتها والقضاء عليها . ولعل والي مصر، محمد علي باشا،أخذ على عاتقه العبء الأكبر لتنفيذ مخططاتها الرامية الى الابقاء على نفوذها في قلب الجزيرة العربية . فأوفد أولا ولده « أحمد طوسون » بجيوش جرارة ، ولكن هذا لم يفلح في القضاء على رسالة الحق التي انبثقت من الدرعية . لذلك ندب ولده الثاني « ابراهيم باشا » لتلك المهمة وأمده بقوات كبيرة وعتاد ثقيل . فزحف هذا عام ١٢٣٣ﻫ حتى وصل الى مشارف الدرعية وركز مدافعه حولها وأخذ يمطرها بوابل من القذائف ويدك حصونها وأبراجها وأسوارها . وصمد أمراء آل سعود في الذود عن عرينهم ، واستبسل أهل الدرعية في الدفاع عن مدينتهم حتى نفدت ذخيرتهم وشحت مؤونتهم ، واستسلمت الدرعية بعد كفاح مرير وقتال عنيف . وقام ابراهيم باشا بتدمير الدرعية وتشتيت أهلها واحالتها الى خرائب وأطلال . ويصور الشاعر الشعبي « أبو نهية » ما آلت اليه الدرعية عام ١٢٣٣ﻫ أصدق تصوير في قصيدة نبطية طويلة نقتطف منها الأبيات التالية :

سهرت وكـل العالمين هجيع … بتغريد ورق بالغصون سجيـع
ناديتهم يالورق بسّك من الغنا … لعلك تبكي يا حمام فجيـع
تبكي وليـف لك وتلقى سواته … ما نتب يا حمام سواتي وجيع
بعيد عن الأوطان في دار غربه … أمسي وأصبح ما أشوف ربيـع
ما أدري أبكي هم بالي أو ما جرى … أو أبكي دهر لدي خديـع
أو أبكي على ربع عفاف وأهل نقا … ذِبْحوا بليّا شافـع وشفيـع
أبكي معازيـبـي بمصر تشتتوا … فهد وسعد والعيـال جميـع
وأبكي العوجا(٩) ربينا بربعها … صغار كبار نشتري فيها ونبيع
غدت مأوى جن تطارد بسوقها … ما غير جدران كـذا وسفيع
ما كن صار فيها للحكم منصى … لا قصر بم الطريـف رفيـع
ولا شدت الركبان منها لغيرها … ولا بركت فيها الطروش قطيع
ولا أسس فيها للعلم مـدارس … ولا مسجد مـن شمالها وسيع
ولا داج بأسواقها خرد المهـا … من كل عذراء كالغزال تليـع

وها هي ذي اليوم بعد نحو قرن ونصف من الزمان تعود الى سابق عهدها من ازدهار زراعي وعمراني وعلمي واجتماعي. ولن يطول الوقت حتى تصبح الدرعية جزءا عزيزا من الرياض ، عاصمة البلاد ، التي أخذت يد العمران فيها تمتد الى الدرعية بشكل سريع . والجدير بالذكر أن مباني جامعة الرياض قد خصصت لها أرض واسعة على بعد أربعة كيلومترات شرقي الدعية . كما جرى مسح جميع الأراضي الواقعة بين مدينة الرياض والدرعية لتصبح في المستقبل القريب بقعة سكنية هادئة جميلة.

جولة في الدّرعيّة وأطلالها

رغم الأرزاء والنكبات التي حلت بالدرعية في عهدها الماضي نجد أن أهلها يتمتعون بروح عالية من العزم والتصميم ، فقد عادوا اليها بعد طول تشتت ، وراحوا يبنون ويزرعون حتى عاد للدرعية رونقها وبهاؤها . وبدأت الحياة تدب فيها من جديد .

وتضم الدرعية أحياء قديمة وجديدة . فمن الأحياء القديمة ، الطريف والبجيري وبريكه والمريّح وسمحان والسريحة ومَلْوي والطوالع والظويهرة ، ومن الأحياء الجديدة الظهرة والروقية . ولعل حي « الظهرة » الذي يطل على الوادي من الجهة الشمالية أكثر الأحياء حركة ونشاطا لوجود السوق فيه من ناحية ، ووجود مركز التنمية ومركز التدريب والبحوث التطبيقية على ربوة في الجهة الشمالية منه ، من ناحية أخرى .

وتتبع الدرعية عدة قرى زراعية تقوم في الوادي وشعابه منها ، العِلْب والعودة والعمّارية وأبا الكْباش والمغَيْدر والوَصيل والملْقى .

وفي جولتنا بين أطلال الدرعية رافقنا أميرها سعادة الشيخ « محمد ابن عبد الرحمن الباهلي » ، وهو من الملمين بتاريخ هذه المنطقة وأحداثها الغابرة . وبدأنا جولتنا في حي البجيري المحاذي لمجرى وادي حنيفة من الجهة الشمالية ، وفيه شاهدنا المسجد الجامع الحديث الذي أقيم على أنقاض مسجد امام الدعوة الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » الذي بناه على مقربة من بيته . ثم قطعنا الوادي من المكان الذي سيجرى عليه انشاء جسر يربط بين البجيري والطريف ، سيما وان السيول العارمة في مواسم الأمطار تحول دون الانتقال من حي الى آخر . واتجهنا نحو حي الطريف المتاخم للوادي من الجهة الجنوبية والذي كان فيما مضى مقرا لسكنى أمراء آل سعود . ويقوم حي الطريف على مرتفعات صخرية شديدة الانحدار في بعض المواقع ، تمتد أمامها بساتين النخيل النضرة في الوادي . وأول ما يصافح أنظار الزائر في هذا الحي أطلال قصر الامام « عبد الله بن سعود » بمحلة « سلوى » ، ولا تزال جدرانه قائمة رغم عاديات الزمن . ويبلغ سمك الجدار الواحد منها حوالي متر ونصف المتر ، وقد شيدت أساساته من الحجارة المقصبة المقطوعة من جبال الدرعية الى علو مترين تقريبا ، أما بقية أجزاء البناء فقد جرى بناؤها من اللبن والطين . ويقوم في الركن الجنوبي من القصر برج سامق للمراقبة يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين مترا . ويمتد من القصر طريق مدرج من الحجارة المطابقة يطلق عليه « درب فيصل » يفضي الى « الدريشة » وهي قلعة جاثمة على ربوة عالية تشرف على الوادي والهضاب المحيطة به . وحول « الدريشة » منبسط من الأرض يسمى « كوع الخيل » كانت تربط فيه الخيول . ومن هذه القلعة يستطيع الزائر أن يرى عددا كبيرة من الأبراج القائمة على ضفتي الوادي . وعلى مقربة من قصر « سلوى » ،

(٩) هذا الاسم يطلق على الدرعية وهو شعار أهلها في الحرب والنخوة .

يقوم قصر آخر يدعى قصر « بيت المال »، وهو دائري الشكل ترتفع على أسواره بعض الشناذر (الأبراج) . وفي الجهة الغربية من القصر الكبير ، يشاهد المرء بقايا مسجد الطريف القديم .

الزراعة في الدرعية

يمتاز وادي حنيفة عامة بتربة رسوبية صالحة لزراعة أشجار الفاكهة والخضراوات على اختلاف أنواعها ، نظرا لما تلقيه روافده من مواد غرينية تزيد من خصوبته . ومن الأودية والشعاب التي تغذي هذا الوادي بالطمي في منطقة الدرعية هي صُغار ، وُبليْدة ، وشعيب الروم (قرى قصير) ، والحَريقة ، والخَسيف ، والعمّاريّة ، والملقَى . وقد كانت الزراعة السائدة في الوادي في الماضي هي النخيل والبرسيم والدخن ، والقمح والشعير ، بيد أن الأهالي سرعان ما أخذوا يتجهون الى زراعة أشجار الفاكهة والخضراوات والبقول . فمن أشجار الفاكهة التي تكثر زراعتها في منطقة الدرعية : العنب ، والرمان ، والخوخ ، والجوافا ، والبشملة (أكيدينيا) ، والتين ، والمشمش ، والتفاح ، والموالح . أما الخضراوات فقد أصبحت تزرع على نطاق واسع لرواجها ، ومنها : الباذنجان والملفوف والقرنبيط والطماطم والحبْحُر (الفلفل) والخس والملوخية والباميا والقرع والكوسا وغيرها . وتعتمد الزراعة في الري ، على الآبار الارتوازية التي تحفر الى عمق يتراوح بين ٧٠ و ١٠٠ متر .

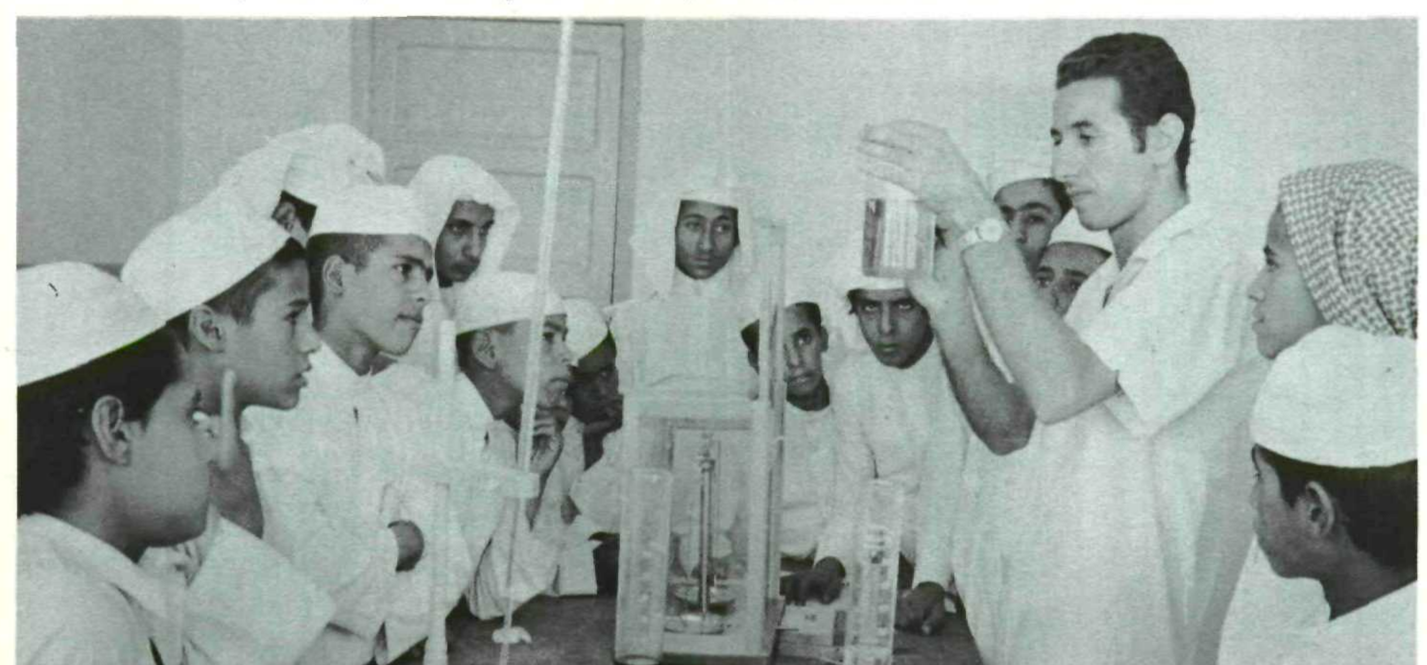
وفي حديث مع المرشد الزراعي ، محمد توفيق بدر ، حول النشاط الزراعي في المنطقة ، ذكر أن التوسع الزراعي في المنطقة يجري رأسيا نظرا لأن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة محدودة . ولذا يلجأ الى تحسين المحاصيل التي تنتجها المنطقة باتباع الطرق الحديثة واستخدام الوسائل الفنية الكفيلة بزيادة الانتاج . ونظرا لأهمية هذه المنطقة بالنسبة للتوسع العمراني في الرياض وزيادة السكان بشكل مطرد ، فقد أولتها وزارة الزراعة عناية خاصة فأنشأت ثلاثة سدود بلغت تكاليفها زهاء عشرة ملايين ريال ، بغية المحافظة على منسوب المياه الجوفية وهذه السدود هي : سد وادي صُغار ، وسد غُبيْره ، وسد الحَرِيقة . وتقوم وزارة الزراعة حاليا بمسح كامل لتقدير مخزون المياه الجوفية . كما تقوم في الوقت الحاضر بدراسة مشروع يهدف الى بناء سد قرب « الثُليْمة » ، وحفر ثلاث آبار ارتوازية عميقة . وتجد محاصيل الدرعية سوقا استهلاكية كبيرة في الرياض وحتى في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية ، ولهذا يقبل المزارعون على استغلال أراضيهم استغلالا حسنا . ويسهم القسم الزراعي في مركز التنمية الاجتماعية بالدرعية اسهاما فعالا بارشاد المزارعين الى أفضل الأساليب الزراعية عن طريق اقامة الحقول الارشادية والمزارع النموذجية وتقديم المساعدات الفنية للمزارعين وما يحتاجونه من أشتال وآليات ومبيدات حشرية وأسمدة كيماوية .

وتموّن الدرعية مناطق كثيرة بتمورها الممتازة ، وخاصة العاصمة ، الرياض . ومن أهم أنواع التمور المعروفة في الدرعية هي : نبت السيف وهي من أجود أنواع التمور في المملكة ، والمنيف ، والسّلّجة ، ونبوت الحمُر وأصلها من المدينة المنورة ، والخَصاب ، والذاوي ، والخُضْري ، والمِشْكاني ، والصُّقْعي ، والمكتومي ، والمقْفِزي وغيرها . والجدير بالذكر أن المزارعين بالدرعية يخرفون (يجنون) الرطب في جرادل زنة الواحد منها حوالي ٣ كيلوغرامات تباع بأسعار مختلفة تبعا لنوع الرطب . ومما يقلق المزارعين حاليا عدم توفر الماء لبعض بساتين النخيل بسبب موجة الجفاف التي أصابت المنطقة . ويعبر عن ذلك ابن الدرعية البار الشاعر « عبد الله ابن خميس » بقصيدة شعبية يقول فيها :

سلام يا دار تربع في مفيض الوصيـــل   نخوة بني مقرن هل العادات تعزاها
يا دار قولي وين صاف الماء وهدّب النخيـــل   اللي تعطّف شرّد الغزلان بظلالها
وين الحدايق ناعمات والمصيف الجميـــل   وين الحمايم ساجعات طيب فالها
حلفت بالله يا بلادي ما نبي بك بديـــل   لو كان دار يجتني الياقوت بسهالها
يالله ياللي لا عطى مهوب مده قليـــل   طالبك يا منزل بلاها تلطف بحالها
عساك يا وادي حنيفة كل يوم تسيل   تحيي بلاد جدد الاسلام بقذالها

وقد بادرت وزارة الزراعة ، كما سبق وان أشرنا الى ذلك ، لعمل كل ما في وسعها لتوفير المياه لهذه المنطقة لتبقى دائما المصيف الجميل والروضة النضرة التي يقصدها أهالي الرياض في مواسم العطل والأعياد لينعموا بظلالها الوارفة ومياهها العذبة ورطبها الجنية وهوائها العليل .

التلاميذ في أحد فصول المدرسة المتوسطة بالدرعية يرقبون باهتمام احدى التجارب التي يجريها أمامهم مدرس العلوم .



التعليم والحركة الأدبية

مدينة الدرعية التي شعّ منها ضياء النهضة الاسلامية ، كانت في القرن الثاني عشر الهجري موئلا للعلم وينبوعا ثرا ينهل منه طلاب العلم الفقه والحديث والتفسير وعلوم اللغة على يد الامام المجدد الشيخ « محمد ابن عبد الوهاب » الذي خلف من بعده مؤلفات قيمة منها : كتاب التوحيد ، وكتاب الكبائر ، ومختصر الانصاف في الفقه ، والسيرة المطولة وكثير غيرها . والجدير بالذكر انه في عهد الامام « عبد العزيز ابن محمد بن سعود » الذي تسلم مقاليد الحكم في الدرعية عام ١١٧٩هـ نشطت حركة التعليم بفضل تشجيعه للدراسة ، مما جعل الدرعية تكتظ بالوافدين اليها من مختلف أنحاء الجزيرة العربية طلبا للعلم . وفي الدرعية وقراها اليوم مدارس ابتدائية عديدة للبنين والبنات وأخرى متوسطة . ويواصل خريجو المدرسة المتوسطة تعليمهم في مدارس الرياض وكلياتها ومعاهدها بحكم قرب الدرعية منها . وبها أيضا مدرستان لتعليم الفتيات والسيدات اللواتي فاتهن فرصة التعليم في صغرهن ، مبادىء القراءة والكتابة والتدبير المنزلي بغية رفع مستوى الأسرة اجتماعيا وثقافيا ..

ويتجلى نشاط الحركة التعليمية في الدرعية وشغف أهلها بالعلم في كثرة المثقفين من أبنائها الذين يشغلون مناصب مرموقة في وظائف الدولة . كما ان من بينهم من يحملون لواء النهضة الأدبية في المملكة عاليا ، ولهم في هذا المضمار أعمال أدبية قيمة ، منهم الشاعر المؤرخ الشيخ « عبد الله بن خميس » صاحب المؤلفات العديدة . وابن خميس هو ابن الطبيعة كلما دلف اليها وجد في كنفها غذاء الروح والعقل فيجود بأعذب الألحان :

من لصب ضاعف النأي هيامه ... مدنف حن الى حَجْر اليمامة
كلما رق له ريح الصبا ... عاج توّا علّه يروي أوامه
واذا ما أنجدت سارية ... حمل البرق مناه وسلامه

تلك الطبيعة المعطاء أنجبت عددا من الشعراء الشعبيين منهم على سبيل المثال لا الحصر ، ناصر العريني ، وأبو نهية ، وعبد الرحمن الصفيان ، وسليمان بن صالح العثيم ، ومبارك بن سليمان بن بريّك وغيرهم . كما أننا نجد بين شباب الدرعية من يتمتعون بمواهب فنية رفيعة تبشر بمستقبل لامع أمثال : ابراهيم ناصر الفصام ، وبيشان حمد بيشان ، وغيرهما ممن لهم لوحات زيتية رائعة استمدوا موضوعاتها من البيئة وتاريخ الدرعية المشرق وآثارها الجليلة .

مركز التنمية الاجتماعية

على ربوة تطل على مدينة الدرعية بواديها الممرع يرتفع صرح يعتبر من أبرز معالمها الحديثة ، هو مركز التنمية الاجتماعية الذي أنشأته وزارة العمل والشؤون الاجتماعية عام ١٣٨٠هـ كأول مركز للتنمية في المملكة العربية السعودية . وهو يشتمل على أربعة قطاعات هي : القطاع الاجتماعي ، والقطاع الزراعي ، والقطاع الثقافي ، والقطاع الصحي . وتمتد خدمات المركز علاوة على الدرعية الى قرى العلب والعودة وعرقه والعمارية والملقى والمغيد والوصيل . وتتضافر جهود هذه القطاعات الأربع في سبيل النهوض بتلك القرى ورفع مستوى سكانها الاجتماعي والثقافي .

ومن بين المشاريع الأخرى التي يتبناها المركز في القطاع الاجتماعي مشروع تحسين مستوى الأسرة الاقتصادي ، والأمومة والطفولة ، وفرحة اليتيم ، وتحسين المساكن ، والمعسكر الصيفي . وفي القطاع الزراعي يقوم الأخصائيون بعقد اجتماعات ارشادية يحضرها أصحاب المزارع لتدريبهم على مختلف العمليات الزراعية ، وحثهم على تبني الأساليب الحديثة لتحسين نوعيات محاصيلهم من الخضراوات والفواكه ، كما يشرفون على رش المزارع بالمبيدات الحشرية وتوزيع الأسمدة الكيماوية والأشتال على المزارعين . ويقوم القسم الصحي في المركز بالبحوث الصحية ،

الآليات الحديثة أخذت تظهر في النشاط الزراعي . وهذه حصادة تستخدم في احدى المزارع في الدرعية .





الرطب الجني يخرف (يجمع) في جرادل صغيرة ويباع في أسواق الرياض .

ومكافحة الحشرات الناقلة للأمراض ، والارشاد الصحي ، وتنظيم الزيارات للمنازل والمدارس لاتخاذ الاجراءات الوقائية ضد الأمراض ، واصدار النشرات التثقيفية الصحية ، وإلقاء المحاضرات . وفي المجال الثقافي يقوم المختصون لدى المركز بنشاطات تستهدف محو الأمية عن طريق الدراسة الليلية لمن فاتهم ركب التعلم ، وتيسير كل ما من شأنه أن يساعد الدارس على مواصلة دراسته . ويشرف القسم الثقافي على مكتبة المركز التي تضم عددا كبيرا من الكتب التي تبحث في شتى المواضيع . وهذه المكتبة تمد المدارس الواقعة في نطاق خدمات المركز ببعض الكتب المختارة التي تتناسب ومستوى الطلاب الفكري .

مركز التدريب والبحوث التطبيقية في التنمية الاجتماعية

تأسس هذا المركز منذ عامين تقريبا بالتعاون بين حكومة المملكة العربية السعودية والصندوق الخاص التابع لهيئة الأمم المتحدة ضمن البرنامج الانمائي للأمم المتحدة ، بموجب اتفاقية مدتها أربع سنوات . والغرض الأساسي من هذا المشروع الضخم هو تدريب الأخصائيين العاملين في التنمية الاجتماعية اللازمين لشغل الوظائف في مراكز التنمية المنتشرة في أرجاء المملكة العربية السعودية واجراء البحوث في الطرق والأساليب الفعالة للنهوض بمسؤولية المجتمع المحلي وتشجيعه على العمل في هذا الاتجاه ، حتى والعمل على تطوير المجتمع والانماء الاقتصادي في اطار المفاهيم الاسلامية والتقاليد العربية الأصيلة . والجدير بالذكر أنه يوجد في المملكة الآن أحد عشر مركزا للتنمية الاجتماعية وستة مراكز للخدمة الاجتماعية . وفي حديث خاص مع الدكتور « فاروق عبد الرحمن مراد » ، مدير عام مركز التدريب والبحوث التطبيقية ، قال : « يتوقف انشاء مراكز جديدة للتنمية في أنحاء المملكة الى حد كبير على توفر الكفاءات المطلوبة لادارتها والاشراف عليها ، وهذا ما نسعى الى تحقيقه في السنوات القليلة القادمة . ويهمنا في الوقت الحاضر أن نعمل بجد على تطوير مركز التنمية الاجتماعية بالدرعية ورفع مستواه الحالي ليعمل كمعهد للتدريب في التنمية الاجتماعية للموظفين على مستوى المسؤولين ولموظفي الميدان والأخصائيين والفنيين والمسؤولين المحليين . وسيقوم المركز بتقديم المشورة والمساعدة لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية والوزارات الأخرى من خلال الدراسات والبحوث التي يجريها » .

وتستدعي خطة العمل استقدام خبراء ومستشارين دوليين في مجالات متعددة منها : التدريب والأعمال الميدانية والتقييم والبحوث التطبيقية والارشاد الزراعي والاقتصاد والاسكان الريفي ، والصناعات الريفية والحرف اليدوية . كما يتم اختيار نظراء سعوديين للخبراء الأجانب من ذوي الكفاءات العالية يجري تدريبهم ليتسنى لهم القيام بدور الخبراء في المجالات المذكورة آنفا . هذا وتعقد دورات تدريبية خاصة لتوفير الأخصائيين الاجتماعيين والفنيين مدتها تسعة شهور يتم اختيار الملتحقين بها من حملة شهادة التوجيهية أو ما يعادلها من العاملين في حقل التنمية الاجتماعية أو من الموظفين في أي وزارة من الوزارات المعنية بالتنمية الاجتماعية . وتعقد أيضا دورات تدريبية قصيرة متخصصة ذات برامج مركزة وسريعة يلتحق بها أشخاص يقع على كاهلهم الاشراف المباشر على أعمال التنمية كرؤساء في مراكز التنمية . ومن المقرر أن تعقد خمس دورات قصيرة خلال هذا العام مدة كل منها ٢٥ يوما وسيشترك في كل منها عشرون ملتحقا .

هذا ، ويعتبر مركز التدريب والبحوث التطبيقية في التنمية الاجتماعية الأول من نوعه في الشرق الأوسط .

الحياة الاجتماعية في الدرعية

يتصف أبناء الدرعية بالجد والمثابرة والتعلق بالأرض حتى لنجد أن الأسر التي نزحت الى بعض مدن المملكة وقراها بحكم ما أصاب الدرعية من كوارث في الماضي أو بحكم أعمالهم ووظائفهم يعاودها الحنين الى مرابعها الخضر ورياضها النضرة . ومن المظاهر الملموسة التي تنم عن حبهم لأرضهم الخيرة انهم في أيام العطل والمناسبات ينتشرون زرافات في البساتين النضرة في جلسات لطيفة مؤنسة ، يرتشفون خلالها القهوة العربية ويتناشدون الأشعار الشعبية التي لهم بها ولع شديد . هذا وينتمي عدد كبير من شباب الدرعية الناهض الى « نادي الدرعية الريفي » الذي أسهم في تأسيسه عام ١٣٨٩هـ القسم الاجتماعي التابع لمركز التنمية . ويشارك أعضاء النادي باقامة حفلات السمر والرقصات الشعبية والندوات الأدبية والفنية . ومن عادات أبناء الدرعية وتقاليدهم الطيبة أنهم في أيام المناسبات يبسطون الموائد في الأسواق ليجد القريب والبعيد ما لذ وطاب من ألوان الطعام . ومن أشهر الأكلات المعروفة عندهم « القرصان » ، « والمطازيز » ، « والحنيني » الذي يتألف من دقيق البر والتمر والذوب (السمن البقري) ، والجريش هو عبارة عن البر المكسر الذي يمزج بالسمن واللبن .

ويشتهر أبناء الدرعية بشكل خاص برقصة العرضة النجدية ، فلهم فيها باع طويل حتى أصبح لهم في المهرجانات الشعبية التي تقام في الرياض مكان مرموق ، فاذا ما اشتد الحماس على دقات الطبول ونقرات الدفوف تسمعهم يرددون :

شيخنا سير بنا لا توَنّي　　　من سعى بالحرب حنا ذهابه
يا صليب الراس زبن المجنّا　　　من سلايل وايل يلتجى به
حنا هل العوجا نسابق دخنا　　　فعلنا بين وكلا درى به

وبعد ، تلك هي الدرعية التي تستمد من ماضيها العريق ما يدفعها الى السير بخطى حثيثة على درب التقدم ■

سليمان نصر الله

تصوير : علي عبد الله خليفة

الرئيس ابن سينا

بقلم الاستاذ عبد الله حشيمة

— حالة الأمير ، يا خالد ...
— ماذا ؟
— لا تدعو الى الاطمئنان . وطأة الداء تشتد عليه ، ولا يجد أطباؤنا سبيلا لشفائه .
— لا حول ولا قوة الا بالله ..

كان هذا الحديث بين اثنين من أهل بلاط الأمير شمس الدولة الحمداني ، ومنه يستدل على أن الأمير الحمداني هذا يعاني من داء عجز الأطباء عن شفائه منه .

وتابع خالد قائلا :

— هؤلاء الأطباء يا عباس أكاد أفقد ثقتي بهم ، ومن المؤسف أن يعطف شمس الدولة عليهم ، عطفه على سائر أهل العلم ، ولا يحفّزهم سخاؤه على توسيع آفاق معرفتهم .

قال عباس :

— أنا معك في هذا .
— ولمَ لا يستعان بأطباء من الخارج ، فقد يكون الداء الذي يعاني منه الأمير مجهولا لدى أطبائنا ومعروفا عند سواهم .
— الى هذا يتجه التفكير .
— هـه .
— وفي جرجان طبيب يدعى « ابن سينا » له على ما يقال شهرته الواسعة ، وسيمضي من يأتي به .
— ابن سينا ... سمعت بالطبيب هذا ، فهل تعتقد أنه في مستوى شهرته ؟
— أعماله تشهد له .
— وما أعماله ؟
— مما يقال عنه انه ، في الثامنة عشرة من عمره ، دعي الى معالجة الأمير نوح بن منصور الساماني ، فشفي من داء استعصى على كبار أطبائه .
— اذا كان هذا ...
— لنا أن نجرب ، وليس لنا أن نشك ، وحالة الأمير كما تعلم .

قال خالد :

— هذا صحيح ... وعسى أن يكون «ابن سينا» عند حسن الظن به ، فاذا أفلح في معالجة شمس الدولة ، كما أفلح في معالجة غيره ، فاني لأرى منذ الآن أي شأن سيكون له في البلاط الحمداني .

• • •

الرئيس ابن سينا ...

هو من اذا ذكر الطب كان رائده ، واذا فاخر العرب فبه وبأمثاله ، ممن ينط لعزتهم ومجدهم ، على صعيد ماضيهم الثقافي والحضاري.

منذ أكثر من ألف سنة مات ،

وما يزال علمه حيا .

وكانت شهرته قد ابتدأت تعم أرض الخلافة ، عندما استدعي لانقاذ الأمير شمس الدولة من دائه . وكان هذا ركن الأسرة الحمدانية ، ومن ذوي العطف الخاص على العلم وأهله . و « ابن سينا » يعرف ذلك عنه ، ويعرف كرمه.

ومع ذلك فقد كان عليه أن يتحفظ في حسن ظنه ، وهو من عرف الأخطار التي يتعرض لها عشراء ذوي السلطان ، وشر الأخطار تلك ما كان مصدره الحسد ، وأداته الوشايات .

وفي بلاط الأمير المريض ، انصرف الى أداء واجبه كطبيب ، وابتعد عن التدخل في كل ما ليس من اختصاصه وشأنه .

وأحاطه أهل البلاط بالاجلال ، وبكل ما يستحق من الاكرام .

وأشدهم اهتماما لأمره كان حماد ، وزير شمس الدولة الأول ... كان يبالغ في مجاملته وتقديره ، وبعد معاينته الأولى للأمير المريض ، سأله مهتما :



— ما تبين لك من حالة مريضنا ، أيها الشيخ الطبيب ... أيكتب له الشفاء على يدك ؟
قال ابن سينا بتؤدة :
— الشفاء بيد الله .
قال حماد :
— ان ما أتانا عنك يدعو الى الاعجاب ... فما كان سبب هجرك بلاط الأمير نوح بن المنصور ، بعد أن نال الشفاء على يدك ، وأحاطك بما أحاطك به من التقدير والاكرام ؟
قال ابن سينا متضاحكا :
— أقوال الحساد والوشاة ، أيها الوزير اللبيب .
— وفي خراسان ... أكان لك حساد ووشاة لتلوذ بالهرب ، والمعروف عن حاكم تلك البلاد انه يرفع أهل العلم الى ما هم أهل له من المراتب ؟
— الحساد والوشاة ... انهم في كل مكان ، وحتى من يطلب العزلة في رأس جبل يجدهم ، ولو أنني على شيء من السلطان والمال لعذرت حسادي ووشاتي ، ولكنني أفتقر أحيانا الى الكساء والقوت ، وأحمد الله على انه أعطاني علما أرفه به عن نفوس المتعبين والمتألمين من عباده .
— وما حالك في جرجان ؟
— في جرجان ...
قالها بمرارة ، ثم تابع :
— كاد يكون لي ثمة استقرار ، لو لم يفاجىء القدر حاكمها بالموت ، فأنا بعده أعيش كما يتيسر لي أن أعيش ، وأؤدي رسالتي الانسانية .
قال حماد :
— ونعم الرسالة رسالتك ... وعسى أن يمن الله على أميرنا بالشفاء على يدك ، وتعيش عندنا على الرحب من غير أن يكون لك بيننا حساد ووشاة .

* * *

شفي شمس الدولة .
وتناقل أهل البلاط ، ومن بعدهم جماهير الشعب ، الخبر السار باعجاب :
— لقد اجترح الطبيب الغريب أعجوبة .
— حقق الشفاء للأمير .
— انه ولا شك أعظم أطباء عصره .
وخالد وعباس كانا أشد الجميع اعجابا به ، وحماسة له . قال خالد بصدق واخلاص :
— ألا بارك الله فيه وفي طبه ، يا عباس . من أول نظرة الى الأمير عرف داءه ، وقال ان حالته التي تبدو خطرة لا خطر فيها .
قال عباس :
— وكان ما أراد الله على يده .
— وسيقدر الأمير علمه .
— لقد كان شمس الدولة وما يزال نصير العلماء ، فكيف وقد أصبح مدينا لأحدهم .. لهذا الطبيب النطاسي .
— سيوليه كما علمت منصبا رفيعا ، اذا قبل .
قال عباس مستغربا :
— أما يقبل ... أيكون غير الآخرين الذين يتهالكون على احراز المناصب ؟
قال خالد :
— هذا ما عرفت عنه . انه ممن يؤثرون التفرغ لاداء رسالتهم العلمية على الانزلاق في مهاوي المناصب التي تحول بينهم وبين اداء هذه الرسالة .
قال عباس :
— ولكن ، يا خالد . أما ترى أن في قبوله منصبا يضمن له أسباب العيش المادي ما يساعده على أداء رسالته ؟
قال خالد :
— أنا وأنت نرى هذا ، وأما هو ... يا له من رجل ، علمه يضيء السبيل لطلاب العلم ، وفي هذا ما فيه من عزّة للعرب ، على مرّ الأجيال .

* * *

منّ الله بالشفاء على الأمير شمس الدولة ... على يد الشيخ الطبيب ابن سينا ، فكان على الأمير أن يشكر ، والشكر لله تعالى أولا ، ثم للشيخ الطبيب العالم ، فقال له :
لقد بات على شمس الدولة أن يجزيك الجزاء الحق على حسن صنيعك ، فأي جزاء على مستوى علمك تتمنى ؟
وابن سينا لا يتمنى شيئا ، لا منصبا ولا مالا . وبكثير من التجرد والتعفف والبساطة ، وما وراء هذه كلها من الحذر ، قال :
— لا يتمنى رجل العلم أيها الأمير الا أن يوفقه الله في اداء رسالته ، وقد وفقني سبحانه وتعالى في شفائك مما ألمّ بك ، فحسبي جزاء ارتياح ضميري الى ذلك .
قال شمس الدولة :
— وضميري ، أما له حساب عندك ؟
قال ابن سينا :
— غفر الله لي ، أيها الأمير .. راحة ضميرك أنت في ما يتوافر لرعيتك من الخير على يدك ، وليس في جزائك رجلا يؤدي ما عليه لخدمة الانسانية .
— واذا كان لرعيتي وللعرب خير في علم هذا الرجل ، أما ترى من واجبي وراحة ضميري أن أساعده على المضي في أداء رسالته ؟
— جل ما أتمنى اذن ، أن أعيش في ظلك ، وأن يتاح لي الاستقرار الذي أنشده لأتابع أداء رسالتي ، بالانتاج العلمي الذي أرى فيه خيرا لقومي ولأبناء الانسانية .
قال شمس الدولة :
— ليكن لديك منصب وزير في البلاط ، مع كل ما تحتاج اليه من وسائل العمل والانتاج ، وليذكر التاريخ أن خير ما أنتجته عبقرية ابن سينا المبدعة انما أنتجته في ظل شمس الدولة

* * *

كان الرئيس ابن سينا على حق ، عندما قال : « الحساد ، والوشاة ... انهم في كل مكان » ... وفي بلاط شمس الدولة كانوا ، وكان مقدرا أن ينكب الرجل العظيم بهم هنا ، كما نكب هناك في خراسان .
ذلك ان حركة تبرم قامت فجأة ، وسرى حديثها في البلاد . ولم يكن شمس الدولة ينتظر مثل هذه الحركة ، بينما أرض امارته تنعم بالرخاء والأمن ، والشعب يدعو له هو الأمير المحبوب بطول العمر .
فما الذي حدث ؟
ولم يصدق أن رجلا عالما كابن سينا غمره بنعمته ، وفسح له المجال لبلوغ أعلى المناصب ، يجاري أعداءه في تدبير حركات التبرم والتمرد عليه .
هكذا قيل له .
وسواء أكان القول صحيحا أم غير صحيح ، فقد كان على أي رجل دولة مثله أن لا يدع الأحداث تمر ، من غير أن يحتاط الاحتياط الكافي لاتقاء شرها .
ومع عدم اقتناعه بصحة ما نسب الى ابن سينا ، ورغبته الحارة في أن يراه بريئا من تهمة التآمر عليه ، أمر باعتقاله وايداعه السجن .
وفوجىء رجل العلم بذلك ، ولم يقل شيئا ... فالحساد والوشاة تراؤوا له ، فاذا هو في ظل شمس الدولة ، مثله في ظل سواه من ذوي السلطان ، يعاني الأزمة التي يحاول الهرب منها ، ويأبى القدر الا أن تكون له من ظله .

* * *

مرت الأيام ... وأطفأ شمس الدولة النار ، وراح يبحث جادا عن الأيدي التي أشعلتها ، من غير أن يشك في براءة ابن سينا .

وقال لوزيره الأول حماد :
— كلما فكرت بابن سينا ، وبما هو عليه من العلم ، وباخلاصه للرسالة الانسانية التي يؤديها ، يصعب علي التصديق أن من كان مثله يسيء الى من أحسن اليه .
قال حماد بخبث :
— أطال الله عمر الأمير ... ليس حريرا كل ما لان ملمسه ، ويعذر من ليس أهلا للنعمة ، ان هو لم يفد منها سوى الطمع والغرور بالنفس
— تكون اذن على غير رأيي فيه .
— كلا ، ولكن ...
— ماذا ؟
— قبل أن يأتي الرجل هذا الى هنا ، كانت الأمور تسير في مجراها الطبيعي ، ولم يكن أحد يفكر في احداث بلبلة ، فكيف بالانتقاض على من كان وما يزال أقرب الحكام الى قلب رعيته ؟

وأطرق شمس الدولة ، وكأنه يفكر في قول وزيره ، بعد تفكيره في أمر الرجل المتهم بالاساءة اليه .

لكل رجل كبير يقربه الحكام حساد ، ولابن سينا حساده ... أيكون شأنه عند شمس الدولة ما كان عند حاكم خراسان ، حيث نال منه الحساد والوشاة منالهم ، بجعلهم منه عدوا للخير والعدل والاستقرار ؟

لا ، لن يكون هذا ،

واذا كان هو شمس الدولة قد سمح باعتقاله ، فهذا لا يعني أكثر من التظاهر بتصديق أقوال الحساد والوشاة فيه ، الى أن يقبض بيده على خيوط المؤامرة التي حاكها هؤلاء أعداء العلم والخير له .

ولم يعجبه رأي حماد فيه ، فهل يكون كبير وزرائه هذا في عداد المتآمرين عليه ؟

لا يمكنه الجزم ، كما لا يمكنه عدم الجزم ، بعد ... فالأمر جد خطير ، واتهام كبير الوزراء يتطلب أدلة غير متوافرة لديه ، فعليه أن لا يتسرع في الحكم ، وأن لا يقسو على السجين البريء في الوقت نفسه .

فقال لحماد :
— وما حال الرجل في سجنه ؟
قال حماد :
— يتظاهر بالهدوء والسكينة ... يطالع ويؤلف في الطب والفلسفة ، وكأنه مطمئن الى أن حرمانه الحرية أمر لا يطول أمده .
قال شمس الدولة :
— يسرني هذا ... لأنه ، اذا جاز أن يحرم مثل هذا الرجل حريته لأمر ، فان حرمان العالم العطاء من ثمار عبقريته جريرة .
وتابع مشددا على الكلام :
— أما اطمئنانه الى أن زمن الحرمان الذي يعانيه لن يطول ، فهذا يعني أنه شديد الثقة بنا وبعدالتنا ، ومن كان هذا شأنه فانه جدير بكل ما يقوى هذه الثقة في نفسه .

* * *

كان خالد ورفيقه عباس أشد أهل البلاط ، بعد أميره شمس الدولة ، اهتماما لأمر الطبيب الكبير السجين . وباهتمام كانا يتتبعان مجرى التحقيق في القضية التي من أجلها سجن .

وقال خالد أخيرا :
— أذكر قولك يا عباس ، ونحن نستعرض الأسباب التي حملت ابن سينا على الهرب من خراسان :
« وقانا الله شر الحسد ، يا خالد » ... وبعد النتيجة التي توصل التحقيق ، في حركة التبرم والعصيان ، اليها أرى أن القضية كلها قضية حسد ووشاية .
قال عباس :
— وأدهش ما في هذه القضية أن يكون حماد ، وزير البلاط الأول ، بطلها ..
أكنت تتصور هذا ؟
— لا ، والله .
— وما أراد الأحمق بهذه الحركة ؟
— الايقاع بابن سينا .
— الايقاع بابن سينا !.. وأي ثأر له عليه ، على عالم مثله وقف مواهبه وحياته لخدمة الانسانية ؟
قال خالد ضاحكا :
— أتكون قد نسيت قولك لي : « وقانا الله شرّ الحسد » ؟
قال عباس دهشا :
— الحسد ... وعلام يحسد وزير البلاط الأول رجلا لم يطلب الوزارة في أدنى مراتبها ، ولم يكن قبوله لها الا لأنها توفر له الأسباب المادية التي تساعده على أداء رسالته ؟
— الحسد أنواع ، يا عباس . ليس على المنصب الكائن يحسد حماد العالم والطبيب ، وانما يحسده على المنصب الذي يخشى أن يكون له ، فيما لو ظل ينعم برضى الأمير شمس الدولة واعتباره .
— يخشى اذن منه على منصبه ؟
— على منصبه يخشى ... على منصب الوزارة الأولى ، في حين ان الرجل أبعد من أن يتخلى عن رسالته العلمية الانسانية ، لينصرف عنها الى متاعب المناصب .
قال عباس مقتنعا :
— أي ، والله . والدليل على ذلك أنه ، حتى في السجن الذي طرح فيه ، عاش في جوه العلمي وكأن الحياة فكر وقلم وكتاب ، وكل ما عدا هذه الأشياء لا أهمية له عنده ... أما ترى ان مكانته ستزداد بعد هذا علوا عند شمس الدولة ؟
قال خالد مؤكدا :
— أرى هذا . ان شمس الدولة يقدر العلم . ويوم يتألق نجم هذا الرجل العبقري في بلاطه ، يضيف الى أمجاده مجدا جديدا .

* * *

ما تراخى شمس الدولة في التحقيق الذي أمر باجرائه ، لاكتشاف سر المؤامرة التي أوصلت الطبيب الذي شفاه الى السجن ، حتى تمكن من معرفة أبطال تلك المؤامرة .

وعلى رأسهم كان وزيره الأول حماد .

وفتح باب السجن ... فاذا ابن سينا يخرج عالي الرأس منه ، ليدخل الحاسد برأس منخفض اليه .

وقال شمس الدولة للطبيب البريء :
— ما أردنا ظلمك ، يا ابن سينا . أدار في خلدك أننا نصدق أقوال الوشاة ، ونرتكب الاثم الذي ارتكب في خراسان ، حيث اضطررت الى الهرب اتقاء للحيف الذي أرادوا انزاله بك ؟
قال ابن سينا :
— ما دار في خلدي أيها الأمير ان من أحسن يسيء . ويوم وقفت علمي على دفع الأذى عن حياتكم الغالية ، لم أكن أطمع بغير الارتياح الى أداء واجبي الانساني ، فكيف يمكنني أن أجعل الاساءة سبيلا الى ما ليس من شأني وشيمتي ؟
قال شمس الدولة :
— ونحن اذ قدرنا علمك لم نجعل المنصب والمال مقياسا لتقديره ، بل كان مقياسنا النفع الذي يعود على قومنا ، وعلى أبناء الانسانية جميعا ، من وراء هذا التقدير . ولذا نرى أن نمضي في تقديرنا ، برغم العثرة التي شاء بعضهم وضعها في طريقنا ، ورغبة منا في أن يكون لشؤون الدولة نصيب من حكمتك ، نوليك منذ الآن شؤون وزارتنا الأولى ، وأنت خير من يتحمل مسؤولية هذه الشؤون ■

اخبار الكتب

• أتم العلامة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي الأستاذ بجامعة الرياض تفسيره لكتاب الله العزيز في عشرين جزءا كاملة وقد تولت اخراجه دار الطباعة المحمدية بالأزهر .

كما صدرت حتى الآن الأجزاء الأربعة والثلاثون من « التفسير الفريد للقرآن المجيد » للدكتور محمد عبد المنعم الجمال ، ونشرتها دار الكتاب الجديد .

• من كتب التراث التي صدرت أخيرا كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » لعلي بن الحسن الملقب بالمسعودي ، وقد ظهر في تسعة أجزاء ضخام باشراف السيد القميّ ، ونشرته مؤسسة مطبوعاتي اسما عيليان بطهران و « الاجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة » للامام بدر الدين الزركسي وقد حققه الأستاذ سعيد الأفغاني ، ونشره المكتب الاسلامي في بيروت ، و « دمية القصر وعصرة أهل العصر » لأبي الحسن الباخرزي ، وقد حققه الدكتور سامي مكي العاني ، نشرته مطبعة المعارف ببغداد .

وتحت الطبع كتاب « صحيح الامام البخاري » بخط الحافظ الصدفي و « النصوص الظاهرة » لابن أبي الرجال وكلاهما من تحقيق الأستاذ عبد الهادي التازي و « الجمل » لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي وهو من تحقيق الدكتور مازن المبارك .

هذا وقد صدر لأديب حلب الأستاذ سامي الكيالي كتاب « مخطوطات حلب » (ونشرته وزارة الثقافة السورية) .

• أصدر الأستاذ جعفر الخليلي العلامة العراقي الجزءين الثاني عشر والثالث عشر من « موسوعة العتبات المقدسة » التي عكف على نشرها من بضع سنين . والجزءان الجديدان يتناولان بيت المقدس في التاريخ وفي آثار الدارسين . وقد اشترك في اعداد فصول هذين الجزءين مع الأستاذ الخليلي الأساتذة عبد الهادي التازي وجعفر الخياط والدكتور أحمد سوسة . وتصدر الموسوعة عن دار التعارف ببغداد .

• من الكتب التي تبحث في السير والتراجم ظهرت الطبعة الثانية من كتاب « أبو العلاء المعري : نسبه وأخباره وشعره ومعتقده » للعلامة الراحل أحمد تيمور . وقد تميزت هذه الطبعة بمقدمة نفيسة وضعها الدكتور بدوي أحمد طبانة (ونشرت الكتاب مكتبة الانجلو المصرية) .

كما صدر للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي كتاب في ثلاثة أجزاء عنوانه « الخفاجيون في التاريخ » تابع فيه سير الخفاجيين في الديار العربية المختلفة ، وقدّم نماذج من آثارهم شعرا ونثرا ، وصدر الكتاب عن دار الطباعة المحمدية بالأزهر .

ومن السير الجديدة التي ظهرت أيضا « ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه » للأستاذ كعدي فرهود ، تقديم الدكتور جميل جبر والشيخ حبيب مسعود ، ونشر دار الريحاني . و « حامد حسن والاتجاهات الأدبية في شعره » للأستاذ حبيب بهلول ونشر مجلة الثقافة بدمشق .

ويصدر قريبا كتاب « الامام علي بن أبي طالب » وهو كتاب موسّع للعلامة الراحل أحمد تيمور وكتاب « الشريف الادريسي » وهو من تأليف الأديب محمد عبد الغني حسن .

• من الكتب التي تتناول جوانب الفن ظهرت أخيرا هذه الطائفة : « ضرورة الفن » لأرنست فيشر وترجمة الأستاذ أسعد حليم ونشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . و « مع الموسيقى » للدكتور فؤاد زكريا ونشر الهيئة المصرية العامة . و « التطوّر في الفنون » لتوماس مونرو وترجمة الدكتور محمد علي أبو درّه والأستاذين عبد العزيز توفيق جاويد ولويس اسكندر ومراجعة الأستاذ أحمد نجيب هاشم ، وقد صدر عن الهيئة المصرية العامة و « طريق العذاب في الحب والفن والحياة » للأستاذ أنيس منصور ونشر عالم الكتب بالقاهرة .

• جمعت فصول الأديب العراقي الراحل فهمي المدرس ودراساته في كتاب من جزءين عنوانه « مقالات فهمي المدرس » وقد اضطلع بمهمة جمعها

الأستاذان عبد الحميد الرشودي ومحسن اسماعيل ونشرتها مكتبة المثنى .

• صدر للاستاذ محمد بن ناصر بن عباس كتاب عنوانه «موجز تاريخ الصحافة السعودية»، وقد صدر هذا الكتاب عن مؤسسة الجزيرة بالرياض .

• صدر عن دار النهار ببيروت كتاب عنوانه «تاريخ الصحافة في مجموعة صحف» فيه سجل تاريخي للصحف اللبنانية ، وله مقدمة بقلم الأستاذ غسان تويني ، وكتاب «بين الجوهر والوجود» وهو دراسة فلسفية للدكتور كمال يوسف الحاج .

• من كتب التربية التي صدرت حديثا : كتاب «الأصول الحديثة لتدريس اللغة العربية والتربية الدينية» للاستاذين علي الجمبلاطي وأبو الفتوح التوانسي ، وقد صدر عن دار نهضة مصر . وكتاب «التعريب في لبنان : مشاكله وأبعاده» للأستاذ محسن سليم .

• من الكتب التي تتناول الأدب الروائي ظهرت المجموعة التالية : «بيت من لحم» مجموعة أقاصيص للأستاذ يوسف ادريس ، نشر عالم الكتب و «الوادي السعيد» لصموئيل جونسن وترجمة الدكتور لويس عوض ، ونشر دار المعارف في سلسلة «اقرأ» و «نصف وداع» وهي أقاصيص للأستاذ يوسف فرنسيس قدّم لها الأستاذ جلال العشري ، ونشرتها الهيئة المصرية العامة . و «يوميات مصرية» وهي أقاصيص للأستاذ ابراهيم الورداني . نشر دار أخبار اليوم . و «الهمس المذعور» مجموعة أقاصيص للأستاذ عبد الله نيازي ونشر مطبعة حداد بالبصرة .

كما ظهرت ترجمة جديدة للرواية المشهورة «سجين زندا» من اعداد الأستاذ سعيد جوده السحار ، ونشر مكتبة مصر . وترجمة لمسرحية «هاملت» لشكسبير من اعداد الدكتور عبد القادر القط ومراجعة الدكتور محمد اسماعيل موافي ، وقد نشرتها وزارة الاعلام الكويتية .

• صدر للأستاذ محمد عبد الله معيشيق ديوان «رياض» عن دار لبنان . ويصدر للشاعر نزار قباني ديوان جديد عنوانه «لا» .

• يصدر الأديب الرحالة العراقي الأستاذ ناجي جواد قريبا كتاباً عن رحلته الى مصر والمغرب وأسبانيا مهتما بوجه خاص بتسجيل أحاديثه مع أدباء تلك الديار وزياراته لآثارها ومفاخرها الباقية . كما يصدر الأديب الأردني الأستاذ عيسى الناعوري كتاباً كبيراً عن رحلاته الى أوروبا والى الأندلس .

• صدر للأديبة السورية السيدة سلمى الحفار الكزبري كتاب عنوانه «في ظلال الأندلس» فيه مجموعة من المحاضرات كانت قد ألقتها في المحافل الاسبانية المختلفة ، وقد صدر الكتاب عن مطابع ألف باء الأديب بدمشق .

• كتاب علمي طريف صدر للدكتور عبد المحسن صالح عنوانه «مذكرات ذرّة» تحدث فيه عن الجوانب المختلفة للذرّات في قالب مذكرات ، وقد نشر الكتاب دار المعارف في سلسلة «اقرأ» .

• صدر للدكتور زكريا ابراهيم كتاب جديد عنوانه «مشكلة الحياة» ونشرته مكتبة مصر .

• في الحكم المأثورة والأقوال المشهورة صدر كتابان أولهما للأستاذ محمد قرة علي وعنوانه «سنابل الزمن» ، وقد نشر لحساب المؤلف ، والثاني للأستاذ بشير ورده وعنوانه «درر وطرائف» ، وقد طبع في حلب .

• صدر للأستاذ عزيز السيد جاسم دراسة أدبية تاريخية عنوانها «الأجوبة المسكتة ودورها النضالي في التاريخ العربي» وقد نشرتها مطبعة الآداب بالنجف .

• أصدر الاستاذ صالح بن مسعيد بن هلابي مؤخراً كتابا بعنوان «دخول الاسلام الى حضرموت» .

• انصرف الأستاذ محمد عبد الله السمان الى وضع مجموعة كبيرة من الكتب الاسلامية وسيوالي اصدارها تباعا استكمالا لسلسلة الثقافة الاسلامية التي كان يصدرها من قبل .

• صدر للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي مؤخرا طائفة من الكتب الجديدة من بينها : «قصة الأدب المهجري» في جزءين ويقع في ٨٠٠ صفحة ، و «سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم» في أربعة أجزاء ، و «أحلام السراب» وهو ديوان شعري يقع في ١٠٠ صفحة ، و «قصص من الحياة» و «البحوث الأدبية مناهجها ومصادرها» و «دراسات في الشعر الجاهلي» و «الحياة الأدبية في عصر صدر الاسلام» والثلاثة الأخيرة صدرت عن دار الكتاب اللبناني في بيروت . هذا ويقوم في الوقت نفسه باصدار العدد السادس ضمن سلسلة المكتبة الصغيرة التي تصدر في الرياض عن «أبي دلف الخزرجي» الرحالة المسلم الذي عاش في القرن الرابع الهجري .

• أصدر الأستاذ فتحي الخولي الجزء الأول من كتابه «قطوف لغوية» تناول فيه أبوابا تبحث في اللغة العربية وتأثير الاسلام فيها مدعمة بنماذج من ألفاظ القرآن الكريم ومعانيها . . وقد نشرته مكتبة الارشاد في جدة ■

كُتُبٌ مُهْدَاة

حظيت مكتبة القافلة مؤخراً بالمؤلفات التالية :

• «تاريخ العلوم عند العرب» للدكتور عمر فروخ ، وهو مقرر للسنة الثالثة الثانوية ، ويقع في نحو ٥٥٠ صفحة من الحجم المتوسط ، ومزود بفهارس جيدة التبويب ، وقد نشرته دار العلم للملايين .

• «الخوارزمي» وهو كتيب ضمن مسلسل «من تراثنا» يقع في ٣٦ صفحة من الحجم الصغير ، وقد ألفه الدكتور عمر فروخ .

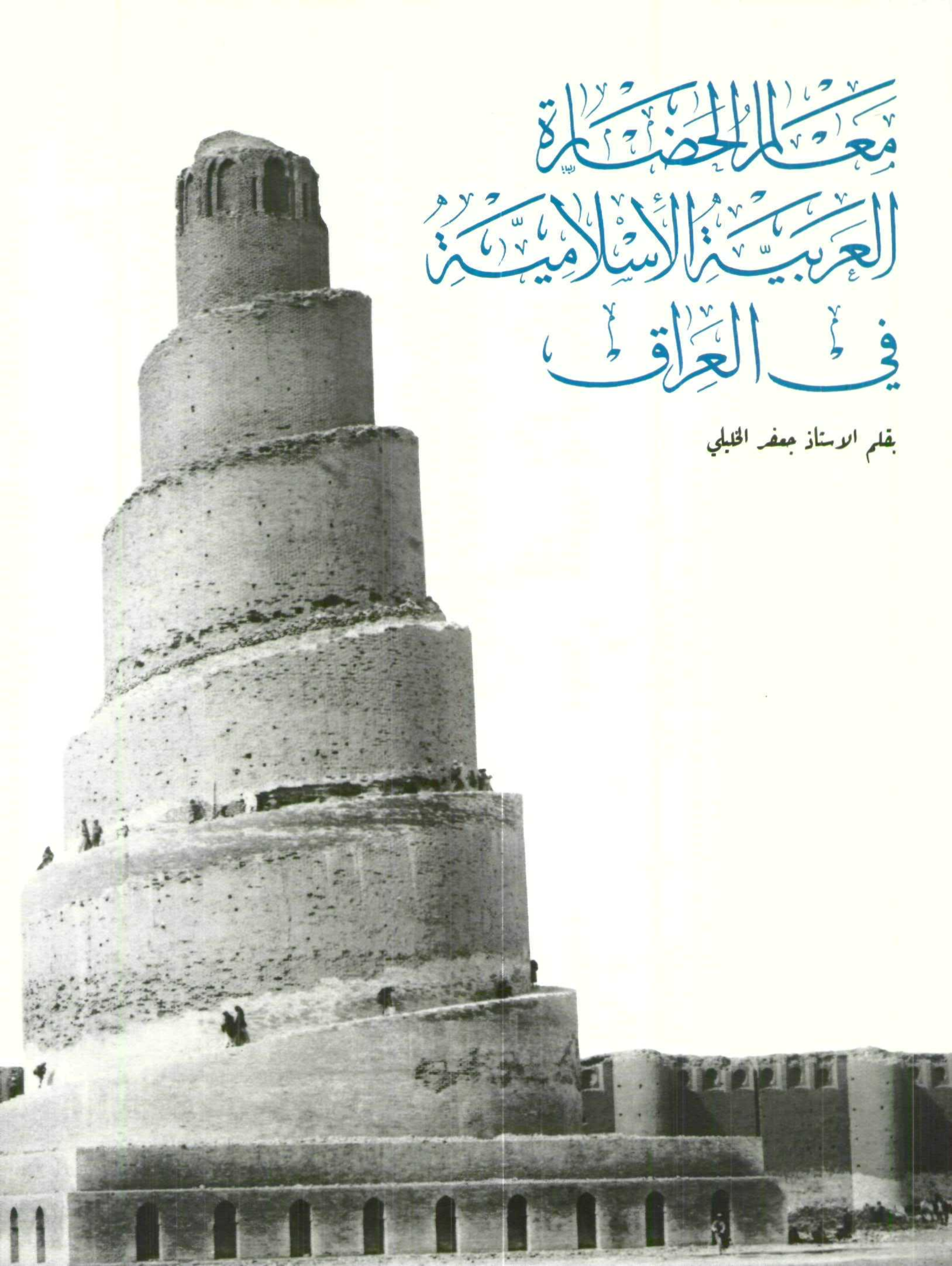
• «عمر فروخ ، وآثاره الثقافية في أربعين عاما (١٩٣١–١٩٧١)» بقلمه ، وقد تضمن بحوثا مختصرة في التأليف وخصائصه وحاجة العرب في سبيل النهوض ، كما شمل قائمة بمؤلفاته .

• «صلات بين العرب والفرس والترك» للدكتور حسين مجيب المصري ، وهو دراسة تاريخية أدبية تقع في أكثر من ٤٥٠ صفحة ، ومزود بفهارس جيدة الترتيب والتبويب . . وقامت بنشره مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة .

• «هدى وذكرى» للأستاذ علي الجندي ، وهو عبارة عن مجموعة شعرية من سلسلة «كتب اسلامية» التي يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة . . ويقع في ١٤٠ صفحة من الحجم المتوسط .

• العدد الأول من مجلة «كلية التجارة» ، وهي مجلة علمية نصف سنوية رصينة يشرف على تحريرها واصدارها نخبة من أساتذة جامعة الرياض .

• وصلنا العدد الثاني عشر من نشرة «أخبار التراث العربي» التي يصدرها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، وكان حافلا برسائل التقدير من لدن العلماء والباحثين والمهتمين بالتراث العربي ■


معالم الحضارة
العربية الإسلامية
في العراق
بقلم الاستاذ جعفر الخليلي

العراق قديما

كان العراق مهدا لحضارة قديمة كان لها شأن كبير في حضارة العالم منذ خمسة آلاف سنة وأكثر ، سواء تلك الحضارة التي انبعثت من السومريين ، أقدم سكان العراق في الجنوب ، أو التي انبعثت من البابليين والكلدانيين في وسط العراق ، أو الآشوريين في الشمال . فقد خلف كل هؤلاء من آثار الحضارة ما لا يزال موضع دراسة وبحث وتنقيب واكتشاف أمور جوهرية في عالم الفلك ، والرياضيات ، وحساب الزمن ، والتشريع والقوانين ، والري الزراعة والعمران ، حتى لقد ضاقت كتب التاريخ بمثل هذه الدراسات التي لم تكتمل حتى اليوم ولا نحسبها ستكتمل في عشرات السنين بعد اليوم .

يقول الدكتور « أحمد سوسة » في كتابه « الري والحضارة » : « ان وادي الرافدين كان مهد أول حضارة لقدماء العراقيين . وموطن أقدم حضارة عرفها تاريخ الانسان في مجالات تقدم الكيان البشري . انبثق منها نور الثقافة والعرفان ، فهي بذلك قدمت للعالم أجمع أسس الحضارة العالمية الحديثة » .

والكتب كما يعرف الجميع من أهم عناوين الحضارة والأدلة على ألوان الحضارة ومدى تغلغلها في أوساط الأمة ، وقد دل التاريخ على أن عناية السومريين والبابليين والآشوريين قد سبقت أية عناية أخرى في التاريخ القديم بالكتاب والمكتبات باعتبارها وسيلة من أهم وسائل الثقافة ، والمعروف أنهم كانوا كثيري الاهتمام بتعلم القراءة والكتابة على الآجر ، وكان ملوكهم يعنون عناية خاصة بتعليم أولادهم القراءة والكتابة .

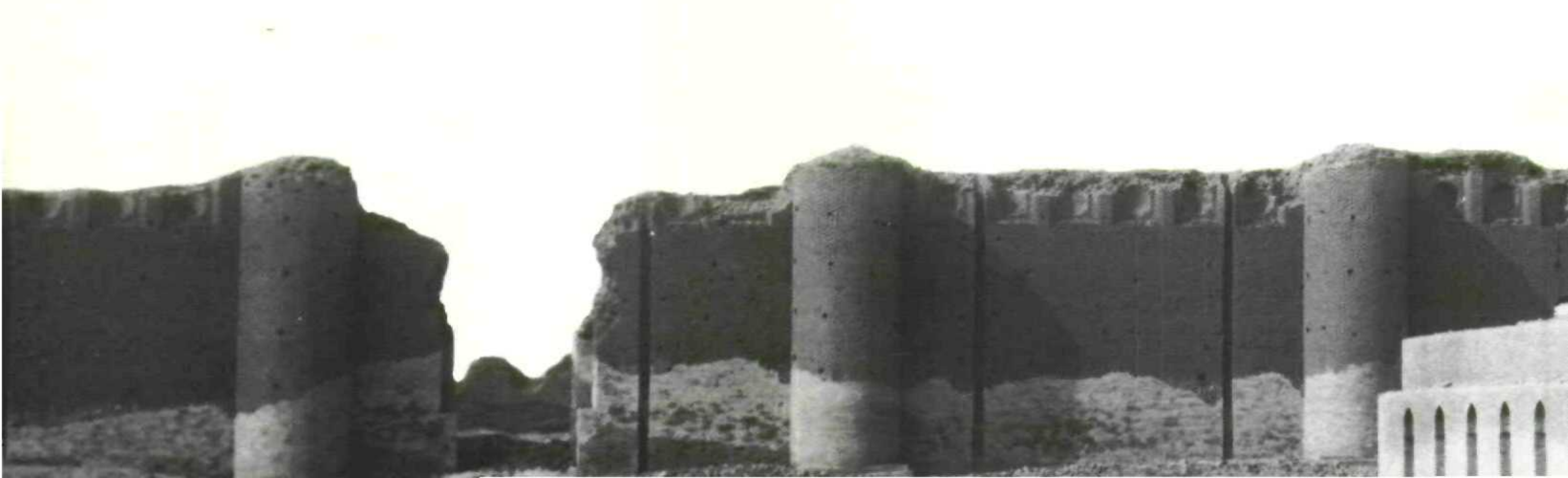
ولقد روى الدكتور « جيمس هنري بريستد » في كتابه « العصور القديمة » : « ان المنقبين في مكتبة « آشور بانيبال » في « نينوى » قد وجدوا اثنين وعشرين ألف آجرة بقيت مطروحة على أرض المكتبة مدة ألفين وخمسمائة سنة حتى نقلت الى المتحف البريطاني حيث لا تزال محفوظة هناك ، وهي في مواضيع مختلفة ما بين دينية ، وعلمية ، وأدبية ، جمعت ونسخت بأمر الامبراطور ، وهي أول مكتبة منظمة وجدت في آسيا فيما نعلم ، هذا الى جانب مئات الآلاف من ألواح الطين المكتوبة التي نقلها المنقبون من الأثريين خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من العراق الى المتاحف الأوروبية ، ولا سيما المتحف البريطاني ، وكلها تتناول أصنافا من العلوم والمواثيق والعهود الدالة على حضارة ذات قيمة .

ولقد عثرت مديرية الآثار العراقية أخيرا في « تل حرمل » بالقرب من بغداد على مكتبة تحتوي على عدة آلاف من ألواح الطين تبحث في مختلف أصناف العلوم والمعرفة .

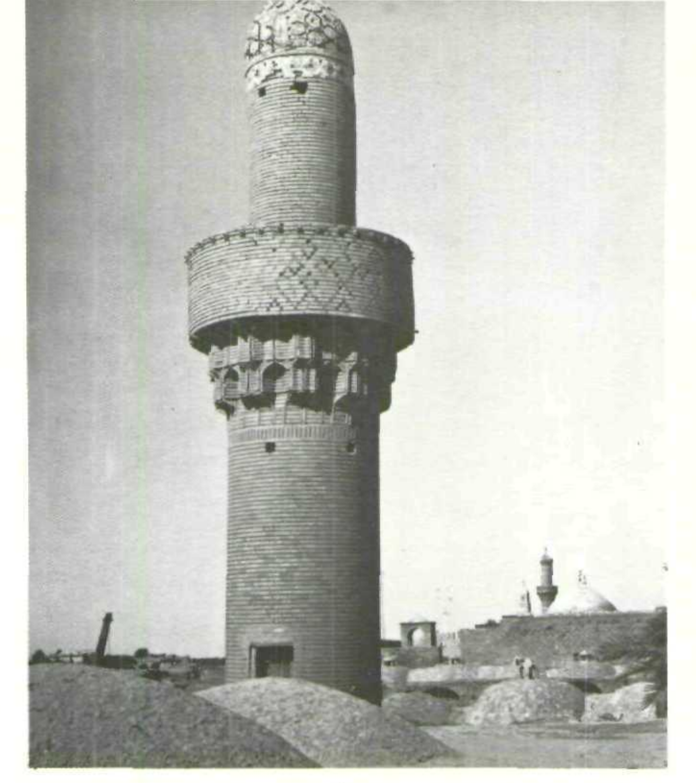
كل هذا الى جانب الآثار التي دلت عليها مقابر السومريين واطلال « بابل » ، واطلال « نينوى » ، وما بدأ يظهر يوما بعد يوم من آثار العمران في التنقيب ، مما يدل على حضارة زاهرة مدهشة .

ولقد اندثرت تلك الامبراطوريات ، وتهدمت تلك المدن العامرة ، وانطمرت تلك الآثار الا بقايا من الاطلال التي خلفتها تلك الحضارات من جداول ، وأنهار وترع ، ومزارع ، وهندسة ريّ مدهشة ، وصناعة . ولكن آثارها في نفوس السكان ، وان تقادم عهدها ، كانت ملموسة ، فقد خلفت في العراق معرفة طرق الزراعة ووسائلها ، وأساليب الصناعة ، ومعرفة حساب الشهور والسنين والمواسم ، ومعرفة النجوم ، وصناعة الآجر ، وهندسة البناء ، بالاضافة الى ما ترك اليونان والفرس من آثار حضاراتهم في وسط العراق من تقاليد وعادات وعقائد وأدب نتيجة لفتوحاتهم . فكانت ثقافة العراق وحضارته مزيجا من حضارات واسعة كبيرة وكثيرة الألوان والاتجاهات .

منظر عام للمئذنة المعروفة « بالملوية » بسامراء وخلفها بقايا جامع الجمعة الذي يرجع عهده الى القرن الثالث الهجري .



منشور سداسي من الفخار عثر عليه في مدينة « نينوى » الأثرية ، وهو مكتوب بالخط المسماري ، وفيه أخبـــار الملك « اسر حدون » وتاريخ حروبه مع مصر وبعض المدن الأخرى . ويرجع عهدها الى القرن السابع قبل الميلاد .



منارة الجامع المعروف بالخفافين ، وكان يعرف قديما بمسجد الحظائر . وقد بنته « زمرد خاتون » أم الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩هـ.

وحين تم للاسلام فتح العراق ، لم تكن هذه الحضارات التي ورثها العراق مقتصرة على العمران والري والزراعة وأساليب البناء وما أشبه ، وانما كانت تشمل مجموعة من العقائد والعادات والأخلاق والأفكار التي اكتسبها العراق بالوراثة ، في جميع أدواره التاريخية : العلمية والفنية ، والأدبية منها ، أو الأساطير والأخيلة والأباطيل .

الحضارة الاسلامية

وبعد أن تم للاسلام فتح بلاد العراق سنة ١٦ هجرية ، وتم فتح « المدائن » عاصمة الساسانيين في العراق ، وتم هروب «يزد جرد بن شهريار » امبراطور الفرس ، وامتد ظل الاسلام على بلاد فارس ، اتخذت « الكوفة » المركز الأول والعاصمة الكبرى للاسلام يوم نزلها الامام علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه . وكانت هذه أول بوادر امتزاج الثقافات المختلفة بسبب نزعة الاسلام المتفتحة ، ومبادئه الرامية الى اسعاد البشرية . وكانت الكوفة والبصرة أول مدينتين اسلاميتين تجلت فيهما هذه العصارة من الثقافة ووضوح الحضارة الاسلامية . فقد نشطت حركة علمية أدبية يعود اليها الفضل في ضبط اللغة العربية ، ووضع علم النحو والعروض ، وانطلاق الأفكار ، وعرض الآراء ، والتغلغل فيما خلفت الحضارات القديمة في العراق على قدر ما تستوعب الأذهان في تلك الأيام ، حتى ان مكتبة «عمرو بن العلاء» في الكوفة كانت تملأ بيته الى قرب السقف ! !

ولقد ساعد التفتح والتسامح والحرية الفكرية والعدل الذي اتصف به الاسلام على التقاء مختلف الثقافات وانصهارها في بوتقة الاسلام الذي كان من مبادئه نشر العلم والحث على طلبه واعتباره فريضة على كل مسلم ومسلمة . والدعوة الى طلب العلم ولو كان في الصين ، والحث على طلب العلم حثا تجاوز كل حد كما جاء في الحديث الشريف : « أطلب العلم من المهد الى اللحد » . وقد روي عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « اذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وان أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وان أردتهما معا فعليك بالعلم . »

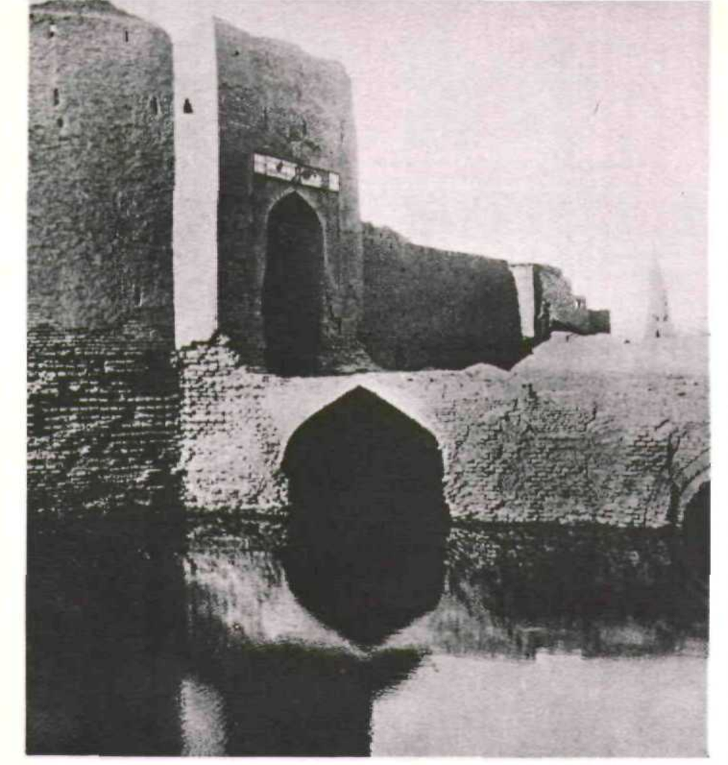
وفي العصر الأموي الذي تم فيه فتح ايران وتركستان والافغان وجانب من الهند كانت الكوفة والبصرة وواسط أهم مراكز الحضارة الاسلامية . ولكن هذه الحضارة لم تتكامل بعد ولم يتهيأ لها الانصهار في مختلف الحضارات وأخذ نصيبها من العلم الذي كان يدعو اليه الاسلام بحرارة .

وان البحث في تمدن الأمة وحضارتها كما يقول « جرجي زيدان » ليتناول النظر فيما بلغت اليه من سعة الملك والعظمة والثروة ووصف ما رافق تمدنها من أسباب الحضارة وثمارها . ويدخل في ذلك تاريخ العلم والأدب والصناعة ومقوماتها كالمدارس والمكاتب والجمعيات ، وبسط حالة الدولة ومناصبها وما انتهت اليه من الرخاء وما هو مقدار تأثير ذلك في هيئتها الاجتماعية الى آخر معالم التمدن والحضارة .

وكل هذا كان يتطلب زمنا أطول ، وانصهارا أشد وأعمق ، وهذا ما تم في العصر العباسي وظهرت آثاره في العراق بأجلى صورها .

في العصر العباسي

وفي العصر العباسي ولا سيما بعد أن كمل بناء مدينة بغداد سنة ١٥٠هـ وأصبحت بغداد العاصمة العربية الاسلامية الكبرى ، انتقلت

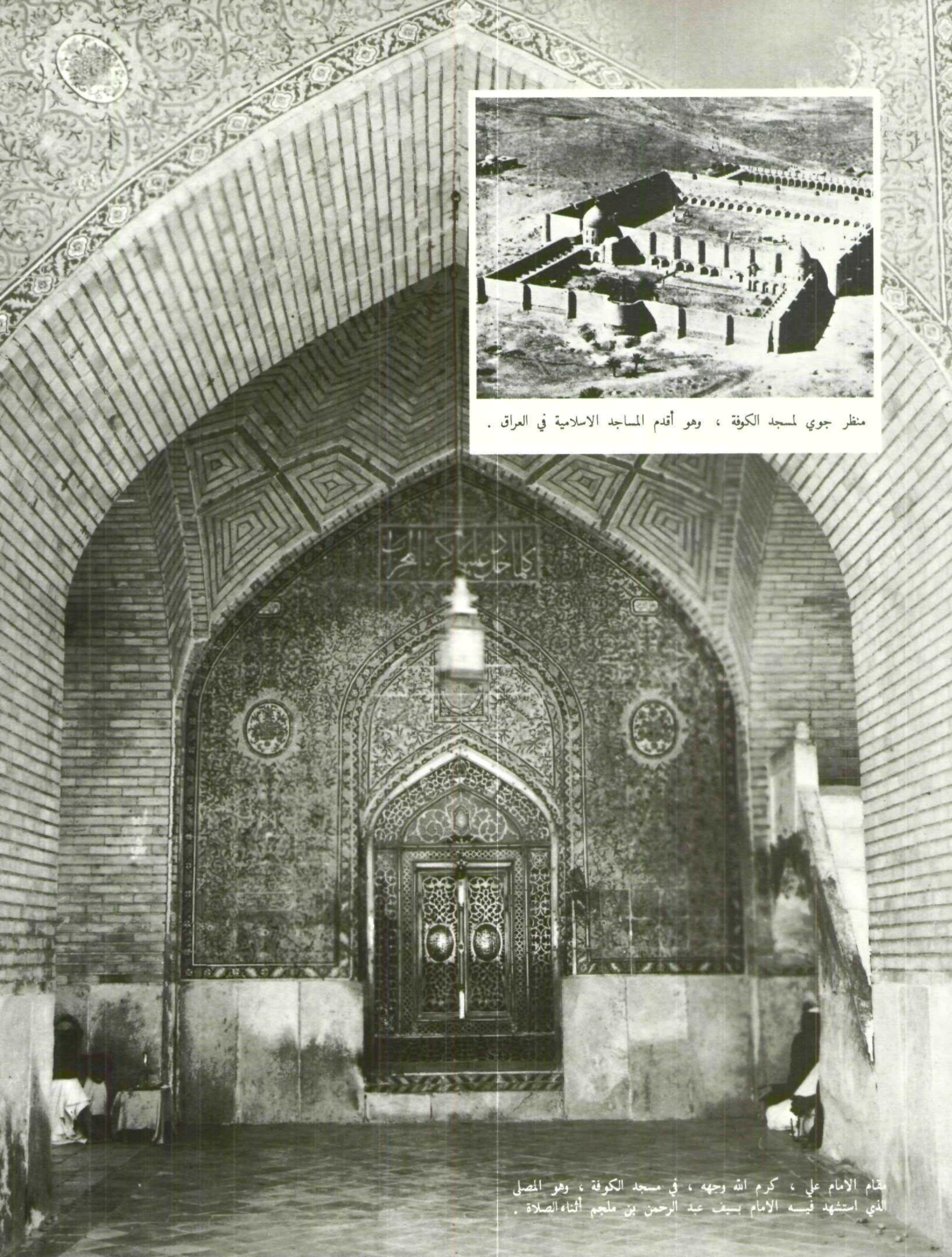


منظر عام للباب الوسطاني «باب الظفرية قديما» ، وهو أحد الأبواب الأربعة لسور مدينة بغداد القديمة التي بناها الخليفة المسترشد بالله العباسي سنة ٥١٠ للهجرة .

الى بغداد طوائف كبيرة من مختلف الأقطار التي أصبحت في حوزة المسلمين ونفوذهم ، وكان لا بد لهذه الطوائف أن تجلب معها ما اتصفت به من ثقافات وحضارات مختلفة ، ممثلة في كتب الطب ، والفلسفة ، والأدب ، والهندسة ، والفلك ، وحتى الكتب التي تتناول شؤون الدولة والوزارة وعلم المال والضرائب وأنظمتها . وقد بوشر بنقل هذه الكتب وترجمتها الى العربية ، فكثر الوراقون وناسخو الكتب وباعتها ، وأصبح للعلم والمعرفة شأن كبير في بغداد وفي العراق قاطبة ، وانصهرت هذه العلوم والفنون والآداب في بوتقة الاسلام فاذا بها حضارة اسلامية عظيمة تستسيغ هضم كل شيء علمي في الغالب ، وكل ما هو صالح في واقع الحياة . وقد ساعد على انتشار العلم والفن وأساليب المعيشة ، ووسائل الحضارة ، موقع العراق الاستراتيجي . فقد كانت كل البضائع والنفائس والأموال والقوافل التجارية تنقل من أقصى البلاد الى العراق أو عن طريق العراق الى الغرب والى أواسط أوروبا .

وكثر الدارسون والمتتبعون ، وكثر المؤلفون والمترجمون ، وانصبغ الأدب العربي بألوان جديدة ، وتطعم بأفكار عميقة واسعة بسبب ما طرأ على البيئة من تغيير في الحياة وفي المعيشة ، وبدأت الكتب تنقل من العراق الى جميع الأقطار الاسلامية . ولا تزال حتى الآن دور الكتب والخزانات في الشرق والغرب تعج بالكتب التي ألفت في تلك العصور ، والتي تبرز جانبا مشعا من حضارة الاسلام التي بدأت منذ القرن الثاني الهجري .

مئذنة الجامع الكبير المعروف بالجامع النوري في الموصل ، وقد نسب اسمه الى اسم منشئه السلطان نور الدين بن محمود بن عماد الدين زنكي ، وهذه المئذنة تسمى أيضا بالحدباء ، وهي أطول منارة مشيدة بالآجر والجص في العراق .



منظر جوي لمسجد الكوفة ، وهو أقدم المساجد الاسلامية في العراق .

مقام الامام علي ، كرم الله وجهه ، في مسجد الكوفة ، وهو المصلى الذي استشهد فيه الامام بسيف عبد الرحمن بن ملجم أثناء الصلاة .

ابرز آثار الحضارة عند الامم

تتألف آثار الحضارة عند كل أمة من مجموعة كتبها ، ومتاحفها وكتاباتها ونقوشها ، ومما تبقى من الأبنية والآطام والآثار الظاهرة من الاطلال أو المطمورة التي تكشف عنها الحفريات ، وان في العراق من هذه الآثار شيئا غير قليل رغم اندثار معظمه وانعدامه .

ولقد خلف العراق ثروة جد كبيرة من الكتب التي تعبر عما بلغته الحضارة الاسلامية في مختلف عصورها الزاهرة في شتى العلوم والفنون ، بالرغم من أن العدد الأكبر من هذه الكتب قد ضاع واندثر ، ولم يبق منها الا النذر القليل . وقد أورد « ابن النديم » في كتابه « الفهرست » أسماء طائفة من هذه الكتب التي كان قد رآها بنفسه أو التي سمع بها . ولا يزال « الفهرست » لليوم المرجع الأكبر للوقوف على هذه المؤلفات العديدة ومؤلفيها .

ويقول مؤلف كتاب « الفهرست » في مقدمته : « والناظر في كتاب الفهرست يعجب لهذا النشاط العلمي الذي كان في العصر العباسي وكثرة المؤلفين والمترجمين في جميع نواحي العلم » .

على أن كتاب « الفهرست » لم يؤلف الا في أواخر القرن الرابع الهجري ، فكم ترى قد أضيف الى المكتبة العربية في العراق في القرون الخامس والسادس والسابع وما بعد ذلك ؟

وقضية دور الكتب كقضية الكتب تماما ، فقد اندثر معظمها نتيجة للحروب والغزوات أو للظروف القاهرة أو الاهمال أو الهدم المتعمد . وكانت هذه الآثار تشتمل على عدد كبير من دور الكتب العامة في العصر العباسي . وقد أورد « دليل خارطة بغداد » أسماء تسع عشرة دارا للكتب ببغداد وحدها . كان أشهرها « بيت الحكمة » و « دار علم الشريف المرتضي » و « دار علم ابن العلقمي » و « دار علم مشهد أبي حنيفة » . هذا فضلا عن دور الكتب العامة التي اشتهرت بها النجف كمكتبة « الصحن الشريف » والبصرة ، والحلة ، والموصل . ولم يبق اليوم منها أي أثر غير مكتبة « مشهد الامام علي » أو « الصحن الشريف » في النجف على الرغم مما أصاب هذه المكتبة من حرائق وتلف . وتحتضن هذه المكتبة اليوم نسخة من المصحف الشريف منسوب خطها الى الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

• • •

والى جانب الكتب ودور الكتب ، فان الآثار تشمل القصور ، والآطام والمستشفيات ، وعددا كبيرا من المساجد والمدارس ، ومن المؤسف أنه لم يبق من كل هذه الآثار العلمية الدالة على حضارة العرب والاسلام في العراق الا بعض الشواهد . وهي على قلتها فانها تصلح أن تكون دليلا على ما كان للحضارة الاسلامية من شأن في أيام العباسيين خاصة ، ولا سيما ما كان منها يتعلق بهندسة البناء ، والتفنن في بناء الأروقة والابهاء وغير ذلك .

ولعل من أهم مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في العصور العباسية هي المدارس ، وهي الأخرى لم يبق منها الا أسماؤها مذكورة في مضامين الكتب ، وقد جهد العلامة المحقق المرحوم الدكتور « مصطفى جواد » والدكتور « أحمد سوسة » في استقصاء أسماء هذه المدارس ، فذكرا أسماء (٣٤) مدرسة كانت معروفة في بغداد وحدها في عهد العباسيين كما ذكرا أسماء (١٤) مدرسة كانت في العهد المغولي ببغداد . وأشهر هذه المدارس كانت « مدرسة أبي حنيفة » في الأعظمية ، و « مدرسة النجف » التي انقسمت بعد وفاة الشيخ الطوسي في القرن الخامس الى عدد من المدارس ، و « مدرسة أبي الفرج ابن الجوزي » ببغداد ، ومدرسة « المخرمي » وهي مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني ، و « المدرسة النظامية » ، و « المدرسة المستنصرية » . وهذه المدارس هي أشهر مدارس العراق التي انبعثت منها ألوان من الثقافات الاسلامية العامة ، بالاضافة الى عدد آخر من المدارس التي كان لها شأن كبير في نواح أخرى من العراق كمدرسة الحلة القديمة .

و « المدرسة النظامية » ببغداد ، وهي أشهر مدرسة ، أنشئت سنة ٤٥٩هـ ، وسميت بالنظامية نسبة الى « نظام الملك وزير الب ارسلان » وابنه « ملكشاه » وتخرج فيها عدد كبير من جهابذة الفقهاء الشافعية ، ودعيت (بأم المدارس) ، وبقيت نحو أربعمائة سنة . أما اليوم فقد أصبحت أثرا بعد عين .

أما « المدرسة المستنصرية » فقد بناها الخليفة « المستنصر بالله » العباسي ، وتكامل بناؤها سنة ٦٣١هـ ، وكان متولي بنائها « أستاذ الدار » مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي ، وقد شيدت على نهر دجلة في جانب الرصافة ، فكانت روعة من روائع الفن المعماري ، « ما بني على وجه الأرض أحسن منها » كما جاء في « أخبار الدول » للقرماني ، وكانت أول مدرسة لم تختص بمذهب معين من المذاهب الاسلامية الأربعة ، وقد بقيت صامدة حتى اليوم ، وتولت مديرية الآثار العراقية العامة ، ترميمها وصيانتها والمحافظة على هيكلها وهندستها ، فكانت اليوم من أهم الآثار على ما بلغته الحضارة العربية الاسلامية في العصر العباسي ، ولا تزال مقصد الزوار والسواح وموضع اعجابهم .

« حصن الأخيضر » وهو من الآثار التاريخية التي تشهد بحضارة الاسلام في العراق ، وهو يتسم بأسلوب البناء العربي الاسلامي ، ويرجع تاريخه الى النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، ويقع على بعد ٥٠ كم جنوب غربي كربلاء في البادية الغربية .



المساجد والجوامع

لم تقتصر أبنية المساجد في الاسلام في السابق على اداء الفروض الدينية ، كالصلاة والمواعظ والارشاد الديني ، وانما كانت الى جانب ذلك بمثابة مراكز للتدريس ودور لعقد الندوات الدينية والعلمية والأدبية . ثم تقلصت مهمتها بعد ذلك حين خصت المدارس ، بأبنية خاصة وأصبحت المساجد مقتصرة على تأدية الفروض الدينية في الغالب ، ومع ذلك فقد ظل كثير من المساجد ، ولا سيما بعض مساجد (النجف) على وضعها السابق : مواطن للدرس والمحاضرات والندوات .

وقد اشتهر في العراق من هذه المساجد والجوامع عدد كبير اندرس بعضها ، وبقي بعضها الآخر شاخصة معالمه بعد أن حظيت بالترميم والتعمير والصيانة التي أعادتها الى هيكلها القديم .



منظر عام لبقايا ايوان كسرى انوشروان .

ومن أشهر هذه المساجد وأقدمها حتى اليوم مسجد "الامام علي" رضي الله عنــه ، في الزبير ، الذي يعود عهد بنائه الى القرن الأول الهجري ، ومسجد "الكوفة" الذي يعود أيضا الى القرن الأول الهجري ، و « جامع الخلفاء » ببغداد . وكان قد أنشأه الخليفة « المكتفي بالله » في أواخر القرن الثالث الهجري ، وهو أحد الجوامع الثلاثة ببغداد . أما الاثنان الآخران ، فهما « جامع المنصور » ، و « جامع الرصافة » . وكان « جامع الخلفاء » الجامع الرسمي للدولة العباسية ، وفي القرن السابع الهجري ، شيدت فيه مئذنة لا تزال قائمة حتى اليوم ، وهي تعرف بمئذنة « سوق الغزل » وتولى الدكتور « محمد مكية » المهندس أخيرا اخراج هذا الجامع بشكل فني وريازة عربية حديثة .

ومن المساجد المشهورة أيضا جامع "الامام الأعظم" في الأعظمية ، و « جامع الجمعة » بسامراء ومئذنته المعروفة باسم « الملوية » والتي يقصدها السواح اليوم لرؤيتها خصيصا ، ويعود تاريخ بناء هذا الجامع الى القرن الثالث الهجري . وكذلك مسجد « أبي دلف » بسامراء ، وتشبه مئذنته مئذنة الملوية الآنفة الذكر ، و « جامع أبي يوسف » في الكاظمين ، و « جامع عمران بن شاهين » في النجف ، ويعود تاريخه الى القرن الرابع الهجري ويقال أن بانيه هو "عمران بن شاهين" وانه بناه تقربا لعضد الدولة البويهي ليعفو عنه بعد تمرده ، و « جامع الشيخ الطوسي » في النجف ويعود تاريخه الى القرن الخامس الهجري وكان من أشهر أندية الدرس وقاعاته ، و « جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني » ببغداد ، ويعود تاريخه الى سنة ٥٦١ هجرية ، و « الجامع الكبير » المعروف بالجامع النوري في الموصل ويعود تاريخه الى سنة ٥٦٨ هجرية ، و « جامع الخفافين » ببغداد ويرجع تاريخه الى سنة ٥٩٩هـ ، و « جامع مرجان » .

هذا بالاضافة الى عدد من جوامع العتبات المقدسة وقد جددت جميعها غير مرة أو رممت وأعيد بعضها الى ما كان عليه قديما . ومن بين هذه الجوامع المهمة « جامع الامام الحسين » المعروف (بالصحن) في كربلاء ، و « جامع الكاظمين » ، بمقابر القريش في الكاظمية ، و « جامع العسكريين » بسامراء ، و « جامع براثا » القديم الذي جدد بناؤه مؤخرا .

منظر داخلي للمدرسة المستنصرية في بغداد ، وهي من المآثر العلمية التي تشهد بالحضارة الاسلامية . وقد شيدها الخليفة المستنصر بالله عام ٦٣٠ للهجرة .

صفحتان من نسخة من القرآن الكريم كتبت على الرّق بالخط الكوفي المشجر ، وتحتوي هذه النسخة على أربعين صفحة على كل صفحة أربعة أسطر . وينسب خط هذه النسخة الى الأمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهي موجودة في الروضة العباسية في كربلاء .



بقايا خرائب بوابة « عشتار » وشارع الموكب في مدينة بابل الأثرية ، ويرجع عهدها الى عصر الملك البابلي نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد .



واجهة المعابد الرئيسية بعد صيانتها ، وقد عثر على هذه المعابد عقب أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار .



بعض الأجزاء الداخلية للقصر العباسي في بغداد بعد ترميمها وصيانتها ، ويعود تاريخ تشييده الى زمن الخليفة العباسي الناصر لدين الله حوالي القرن السادس الهجري .



الواجهات الحجرية لبوابة «شمش» الواقعة ضمن سور مدينة نينوى الأثرية ، مع بعض أجزاء السور بعد صيانتها ، ويرجع عهد هـذه البوابة الى زمن الملك الآشوري « سنحاريب » في القرن السابع قبل الميلاد .

آثار المعالم الأخرى

وتقوم الآن في العراق بقايا لمعالم أخرى لها قيمتها في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، وهي أيضا قد أجريت فيها بعض الترميمات والصيانات الفنية محافظة على هيكلها العام ، فأعيد اليها ما تساقط منها من الآجر والأحجار والأعمدة . ومن أهم هذه الآثار القائمة اليوم : « قصر الامارة » في الكوفة الذي أخرجت الحفريات الأخيرة حيطانه وأسسه ، ويعود تاريخه الى القرن الأول الهجري وهو ملاصق لمسجد الكوفة تماما ، و « حصن الأخيضر » وهو واقع على مقربة من مدينة كربلاء ، وقد اختلف المؤرخون في تاريخه ، ويذهب البعض أمثال الدكتور طه باقر ، الى أنه أثر اسلامي يعود الى القرن الثاني للهجرة ، بينما يذهب آخرون الى انه أثر قديم يرجع الى ما قبل الاسلام ، ومن بين هؤلاء العلامة المرحوم الدكتور مصطفى جواد .

ومن الآثار الباقية أيضا « قصر العاشق » بسامراء ، وهو من أبنية الخليفة المعتمد في القرن الثالث الهجري وقد اندرس ولم يبق منه الا الجدران وبعض الأعمدة القائمة ، و « الباب الوسطاني » لبغداد ، وقد بناه الخليفة العباسي في أوائل القرن السادس الهجري ، ولم يبق منه اليوم غير المدخل وجزء من السور والخندق ، « والقصر العباسي » ، وقد شيد ببغداد في زمن الخليفة الناصر لدين الله وذلك في الثلث الأخير من القرن السادس ، وقد أجريت فيه الترميمات التي أعادته الى هيكله القديم لتمكنها من ارجاع ما تساقط من نقوشه وريازته وآجره وما كان قد تداعى من بعض جوانبه ، وأخيرا « قلعة باشطابية » القديمة في الموصل ، وقد تجددت عمارتها في القرن السادس الهجري ولكن اليوم لم يبق منها الا بعض الأطلال .

وهنالك بعض الآثار التي أخرجتها الحفريات في « واسط » وفي غيرها من المواقع التي تصلح أن تكون عنوانا لمعالم الحضارة العربية الاسلامية من حيث الفن والريازة وهندسة العمارة ، وهندسة الري ، وأساليب الدفاع ، كالحصون والقلاع وأدوات الحرب التي بدأت دار الآثار بتحويلها الى متحف الى جانب المخلفات الأخرى من اللباس والزينة ، وأدوات الطبخ ووسائل المعيشة ■



مبنى مركز التنمية الإجتماعية في الدّرعية ..

راجع مقال "الدرعية، قلعة الأمجاد" تصوير : علي عبدالله خليفة



وَرد الربيع وبورُوده تَفتحت الأزاهر وَحطت نحلة على إحداها
لِتمتص رَحيقها وتحيله إلى رضاب شهد فيه شفاء للناس.

تصوير: برنت مودي